
الرسالة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون ٤٢٩٩٢

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر ونصفه

بدل الاشتراك
ـــص
٣٠ عن سنة كاملة
٢٠ عن ستة شهور
٦٠ عن سنة فى الخارج
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العدد التاسع « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٠ محرم سنة ١٣٥٢ — ١٥ مايو سنة ١٩٣٣ » السنة الأولى

فهرس العــــدد

شروح وحواشى

فى المرأة أيضا

كتبنا فى العدد السابع كلمة عن العيد جاء فيها ان غياب المرأة عن المجتمع الانسانى جر عليه فيما جر الجفاء والجفاف والسآمة والفوضى . فوقع هذا القول من الجنسين البارز والمستتر موقع التسليم والرضا . ولكن قليلا من صالحى الاخوان لايزالون يرون اقصاء المرأة عن الحياة العامة امراً من أوامر الدين ، وقاعدة من قواعد الخلق : فكتبوا الينا والى بعض الصحف يفندون هذا الرأى بحجج انتزعوها من احاديث الظنون ، وهواجس الخوف ، ومواضعات العرف

أما صلة الحجاب بالدين فقد فرغ من توهينها العلماء من امد طويل . وشديد على العقل ان يسلم بأن البدويات والقرويات ومعظم الحضريات — ومجموعهن يربى على تسعين فى كل مائة من جميع المسلمات — قد تعدين بسفورهن حدود الله منذ ظهر الاسلام ، ولم يأخذ على ايديهن امام ولا حاكم حتى اليوم

واما الاعتقاد بأن احتجاب المرأة هو الضمان الوحيد لحصانتها وعفتها فذلك افلاس للتربية ؛ وسوء ظن بالدين ، والقاء بالنفس الى الرذيلة !

فلو ان الفتاة وهى صغيرة فتحت عينها على القدوة الحسنة ، واذنها لصوت الواجب ، وقلبها لنور الله لوجدت من روحها القوى وضميرها النقى وزرا من الفتنة وعصمة من الغواية

فالتربية الصحيحة اذن هى الضمان الذى لا يضر معه سفور ، ولا ينفع بدونه حجاب ، وهى وحدها السبيل المأمونة إلى الغاية التى قصدناها من تلك الكلمة ، ولا نزال نعتقد اعتقادا لا ظل عليه لريب أن غاية الكمال الاجتماعى أن يكون الرجل فى كفة والمرأة فى كفة من ميزان المجتمع ، وتلك هى السنة التى فطرنا عليها الله ، والنظام الذى فرضته علينا الطبيعة ، والواجب الذى يتطلبه العدل ، أما المجتمع الاعرج الاشل البليد الخشن ، فغير جدير بالسباق ولا باللحاق فى هذا العصر الطموح الطائر ، ومجتمعنا بغير المرأة هو ذلك المجتمع : فهو اعرج لانه يمشى على رجل واحدة ، أشل لانه يعمل بيد واحدة ، بليد لان حدة العواطف تنقصه . خشن لان لطافة الانوثة تعوزه

لاحظ مجلسا من مجالسنا احتشدت فيه الرجال شبابا وشيبا فماذا تجد ؟ تجد الحركات العنيفة ، والاصوات الناشزة ؟ والمناقشات الفجة ، والاحاديث الجريئة ؟ والكلمات المندية ، والذوق العامى ، والاحساس البطىء !

لاحظ هذا المجلس نفسه وقد حضرته امرأة — امرأة واحدة ليس غير — تجد الحركات تتزن ، والاصوات ترق ، والمناقشات تنتج ، والاحاديث تحتشم ، والكلمات تنتقى ، والذوق يسمو ، والاحساس يدق ، ذلك لان الرجل حريص بطبعه على ان يجمل سمته فى عين المرأة ، ويحسن صوته فى اذن المرأة ، ويسوغ رأيه فى عقل المرأة ، والاخلاق المكتسبة تبتدىء بالتطبع وتنتهى الى الطبع .

جهل الاولون وظيفة المرأة فلم يعرفوها الا متاعا وزينة ، لذلك اشتد تنافسهم فيها وتنازعهم عليها واستئثارهم بها حتى ضربوا دونها الحجب ، واحصوا عليها الانفاس ، وبثوا حولها العيون ، فجعلوها بذلك قنية لا شريكة ، ومملوكة لا مليكة ، وكان من جريرة ذلك عليها ان وهن جسمها لقلة العمل ، وساء خلقها لفقد الحرية ، وضعف تفكيرها لترك التدبير ، وغفل ضميرها لعدم المسئولية ، فلم تفكر الا فى حلها وحليها ، ومدافعة الضرائر والجوارى عن نصيبها من زوجها ... لقد كان الاسلاف ولا شك عذر فى اقصاء المرأة عن مكانها من المجتمع وخير أعذارهم انهم كانوا ينظرون الى المرأة نظرهم الى الكنز الثمين ، وكان من عادتهم فى الكنوز ان يدفنوها فى الارض او يحفظوها فى الخزائن . ذلك الى ان عمرانهم لم يكن من السعة والتعقد بحيث يطلب نشاط الجنسين جميعا ، فحمل الرجال وحدهم اعباءه وقالوا :

كتب الموت والقتال علينا　　وعلى الغانيات جر الذيول

أما نحن فبأى عذر نعتذر وعلى أى حجة نعتمد ؟ ان الامم الراقية التى نعاصرها ونصادرها لم تزل تنظر الى المرأة نظر الاسلاف اليها ، ولكنها عرفت كيف تحتفظ بالكنوز وتستفيد منها ، فهى تعرضها اليوم فى المتاحف أداة علم ومتعة ؛ وفى المصارف رأس مال وقوة . وعمراننا قد زخر واستبحر حتى اعتدى فيه العمل على الراحة ، والتنافس على العدل ، والقوة على الحق ، وتسلح الغربى فى جهاد الحياة بقوى الطبيعة فى السماء والارض ، ونحن ما زال نصفنا اللطيف قاعداً عن الانتاج عاطلا من العمل

أنا لا أريد أن ندفع بفتياتنا فى أتون الحياة المستعر فتحمل الفأس ، وترفع المطرقة ، وتتعهد المبيع ، وتجلس للحكم ، انما أريد أن تعطى حريتها الطبيعية فى حدود عملها الطبيعى ، وأن تعلم كيف تساهم فى شركة الزوجية ، فتربى الولد ، وتدبر البيت ، وتدير الاسرة ، وتعدل ميزانية الرجل ، وتشعر أنها تعمل متضامنة مع بنات جنسها وبنى قومها لتكوين أمة متماسكة الاجزاء وثيقة البناء لا ينال من وحدتها شهوة من هوى ، ولا نزوة من جهل

ذلك ما قصدنا اليه فى تلك الكلمة الموجزة بسطناه اليوم بعض البسط لعل فيه جلاء لما اختلج فى بعض النفوس من هذا الموضوع

لعل فى الثرثرة فائدة !

تريد (العاصفة) البيروتية ان تضع الموازين القسط للأدباء ، فتقول فلان احسن وفلان أساء ، وهى لم توفق الى ادراك الغرض القريب من الكلمة الواضحة التى وجهناها فى عددنا الماضى اليها ! ! فقد قلنا لها ما خلاصته « ان محاولة التفريق بين أدباء العرب طيش ورعونة ، وان التعصب للبلد كالتعصب للقبيلة نزعة بدوية ونغمة مملولة » ففهمت من ذلك أن الرسالة تقول : « . . . ان الاشادة بفضل أدباء سورية ولبنان على النهضة الادبية فى مصر ضرب من الطيش ، وان الايجاز فى الكلام نعرة بدوية ونغمة مملولة »

فاذا كان هذا مبلغ فهم العاصفة للكلام ، فقد أخطأنا حين عرضناها بالملام ، فان اللوم على العجز ظلم ، والمناقشة مع الخبث مهاترة !

احمد حسن الزيات

أدب القوة وأدب الضعف

للاستاذ أحمد أمين

يروون أن جماعة من آل الزبير كانوا يجتمعون إلى مغنية فيسمعون ويطربون . حتى إذا استخف الطرب أحدهم (وهو عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير) قال فيها :

أحلف بالله يميناً ومن   يحلف بالله فقد أخلصا
لو أنها تدعو إلى بيعة   بايعتها ثم شققت العصا

فبلغت هذه الأبيات أبا جعفر المنصور فدعاه اليه وعنفه على قوله ، وعيره بضعف آل الزبير من هذه الناحية إلى أن قال له « حتى صرت أنت آخر الحمقى تبايع المغنيات ، فدونكم يا آل الزبير وهذا المرتع الوخيم ! »

وسخر المنصور من هذا الضرب من القول . وهذا النوع من الحياة ، وقال إنما يعجبني أن يحدى لى بهذه الأبيات :

إن قناتى لنبع لا يؤيسها
غمز الثقاف ولا دهن ولا نار
متى أجر خائفاً تأمن مسارحه
وإن أخف آمناً تقلق به الدار

هذه القصة تمثل نوعين من الأدب : فنوع يصح أن تسميه أدبا رقيقاً ؛ وإن كنت أشد صراحة فسمه أدبا ضعيفاً أو أدبا « مائعاً » كما يصح أن تسمى النوع الثانى أدبا قويا أو أدبا رصيناً .

ولست أعنى بالضعف أو القوة ضعف الأدب أو قوته من الناحية الفنية ، وإنما أعنى ضعفه وقوته من الناحية الخلقية والاجتماعية : فقد يكون هذا النوع الذى أسميه ضعيفاً أو مائعاً فى منتهى الرقى من الناحية الفنية . كما قد يكون الأدب القوى ليس قويا بالمقياس الفنى .

وهذه القصة تمثل لنا أيضاً أن الأدب المائع والقوى أثر من آثار الحوادث والظروف : فقد فشل آل الزبير سياسياً ولم تتحقق مطامعهم . فاستولى عليهم اليأس وانصرفوا إلى اللهو وانسوا بالسماع وما اليه واحتقروا الخلافة حتى ليهون أن يبايعوا جارية مغنية ؛ ويحدث عبد الله بن مصعب هذا عن نفسه فيقول : إذا غنتنى هذه الجارية .

حسبت أنى مالك جالس   حفت به الأملاك والموكب
فلا أبالى واله الورى   أشرق العالم أم غربوا

اما المنصور فنجح وأسس ملكا ضخما ؛ ووصل إلى هذا النجاح بقوته وحزمه : لذلك كان أحب شعر اليه . شعر القوة والعظمة والحمية .

* * *

يخيل إلى أنا إذا ألقينا نظرة عامة على الأدب العربى من هذه الناحية رأينا الأدب الجاهلى قويا — كجلمود صخر حطه السيل من عل — حماسة قوية ، وفخر قوى ، بل وغزل قوى ؛ والأدب الاسلامى إلى آخر العهد الأموى ، أدب قوى ، فيه عزة الفاتح ، واعجاب الناجح ، ونشوة المنتصر ؛ وإن كان فيه نفثات ضعف فنفثات الحزب الذى غلب على أمره ؛ أو المحب الذى يئس فى حبه : أما من عداهؤلاء ففخر واعجاب ، وهجاء فى أعلى درجات القوة

فاذا نحن انتقلنا إلى العصر العباسى رأينا العزة العربية تأخذ فى الضعف ، ورأينا الانهماك فى اللهو يبعث أدباً جميلا فى فنه ؛ ضعيفاً فى روحه ، فيقول رئيس المجددين فى عصره بشار بن برد :

قد عشت بين الريحان والراح والـ   ـمزهر فى ظل مجلس حسن
وقد ملأت البلاد ما بين فغفو   ر إلى القيروان فاليمن
شعرا تصلى له العواتق والـ   ـثيب صلاة الغواة للوثن

وتوالت النكبات على الشرق من ظلم وجور وسوء فى كل نظم الحياة الاجتماعية فكان الأدب العربى ظلا لهذه الحياة — كان أدباً ضعيفاً ؛ إذا أنت حصرته وجدته بين باك على مصائب الدهر كأبى العلاء ، ومادح للولاة والأمراء والأغنياء . ومستهتر يصف استهتاره وصفاً أنيقاً بديعاً يرضى الفن ولا يرضى الروح ؛ وما اخترع من الفنون كان من هذا الضرب ، مقامات البديع والحريرى بنيت على التسول والاستجداء ؛ وإفراط فى المجون ؛ أو إفراط فى التصوف ؛ وكلاهما فرار من حياة الجد — والنثر حل

كل انواع الزينة من سجع وبديع ، فكان كالفتاة تسرف فى التجمل الصناعى لما شعرت بنقصان جمالها الطبيعى

ولم يظفر العالم العربى من العهد العباسى الا بأفراد قلائل منحوا من القوة فى أدبهم ما كان موضع الاعجاب كالمتنبى والبارودى ، وكلاهما كانت قوته صدى لحياته ، فالمتنبى فارس شجاع كان فى أكثر شعره يسجل وقائع سيف الدولة مع الروم ، ويدون مظاهر القوة والفروسية ، والبارودى كذلك رب سيف وقلم ، فكان قلمه مسجلا لآثار سيفه ، وقليل كان أمثال هؤلاء . وإلا فخبرنى عن شعر البطولة والفروسية والحياة والقوة بعد ، وأين الشعر الغنائى الذى صدر عن شعور بالعزة القومية فى الادب العربى ؟ — أليس عجيباً أن نرى شعر البهاء زهير وقد كان فى أسمى منصب من مناصب الدولة وكان مشرفاً على الحروب الصليبية ومساهماً فى تدبير شئونها لا يذكر لنا فى شعره شيئاً من أغانى الفروسية ، ثم ينصرف بكله إلى الغزل المائع . على حين أن الصليبيين خلفوا لقومهم أغانى وأشعاراً صليبية قوية ، ولم يخلف لنا الأدب العربى فى هذا الباب إلا ما كان تافهاً ضعيفاً — لعل السبب فى هذا أن المسلمين كان موقفهم فى هذا موقف دفاع لا هجوم « وماغزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا »

* * *

وبعد ، فكل عاطفة من عواطف الانسان — على كثرتها وتعددها — موضوع للأدب ، وخير الأدب ما انبعث عن عاطفة صحيحة لا مريضة ، فالشعر المتناهى فى وصف ما يلاق المحب من عذاب والذى يذوب رقة وحناناً ليس — فى نظرى — مؤسساً على عاطفة صحيحة كالذى فى شعر العباس بن الأحنف وأمثاله ، وهذا الشعر وإن أرضى الجمهور ولذ لهم هو فى كثير من الأحيان أجوف ، وهو فى كثير من الأحيان نتاج عاطفة مريضة . وليس من الحق أن يبيع الانسان عواطفه بهذه السهولة — والشاعر المجيد — هو الذى يثير العواطف بقدر ويبنيها على أساس عميق ، اما إن هو تغالى فى ذلك وأثار عواطف حادة لأسباب واهية كان أدبه أدبا خفيفاً ضعيف القيمة مهما استلذه الناس وأعجبوا به .

هناك عواطف حنان ، وعواطف إجلال . وعواطف جمال وعواطف قوة ، وهناك ما يثير الحزن ، وما يثير السرور ، وما يثير الشهوة ، وما يثير البطولة ، وما يدفع إلى الجد ، وما يدفع إلى اللهو ، وكلها صالحة للأدب ، وكلها فى نظر الأدب سواء وان اختلفت قيمتها فى نظر الأخلاق ، ونظر دعاة الاصلاح . فالأخلاق يرى أن الأدب الذى يثير لذة حسية أقل رقياً من أدب يثير شعوراً أخلاقياً كالاعجاب بالبطولة ، واحتمال الآلام فى سبيل أعمال جليلة — وأرقى الأدب فى نظرنا ما أحيا الضمير وزاد حياة الناس قوة .

وأغرب مافى الأمر أن أدباءنا الذين انتفعوا بالأدب الغربى وعملوا على نقله إلى الأدب العربى أفرطوا فى نقل هذا النوع من الأدب المائع وفرطوا فى نقل الأدب القوى ، وسبب ذلك أنهم جاروا ميول الجمهور وسايروا رغباته فكانوا تجاراً أكثر منهم قادة ، والجمهور إنما استلذ هذا النوع لأنه من قديم ألف البكاء ، وكانت حالته الاجتماعية تدعو اليه ، ولأنه ترك جده على كاهل غيره ففرغ للهو .

وكان هذا النوع من الأدب أضر بالشرق من ضرره بالغربى ، لأن الغربى عنده بجانب هذا الادب الضعيف أدب آخر قوى ، فاذا بعث الأول حناناً ورقة ، بعث الآخر قوة وجلداً ، فتعادلت حياته وتغذت نواحى عواطفه . اما الشرق فليس له تراث حاضر من أدب قوى يسند ضعفه ويحيى نفسه — وسبب آخر وهو أن الشرقى — على العموم — ذو عاطفة أحد وهو لها أقل ضبطاً ، فاذا نحن غذيناه دائماً بهذا الأدب الحاد زادت عواطفه ميوعة — مع أنه أحوج ما يكون إلى ما يقوى عاطفته ويضبط جموحها .

* * *

الحق أن الأدب عود ذو أوتار ويجب أن تكون أوتاره على نظام ما عند الانسان من عواطف جدية وهزلية ، ورقيقة وقوية ، وضاحكة وباكية ، ورخيصة وغالية — والعود الذى يوقع عليه الأديب الشرقى ناقص الأوتار ، تنقصه الأوتار القوية والأوتار التى تبعث الحياة ، والأوتار التى تبعث الضحك ليتلوه

ساعة مع الأستاذ الجليل

أحمد لطفى السيد بك

وقائع مجهولة من حياة الإمام محمد عبده

كانت نسائم الأصيل فى مصر الجديدة قد أخذت تنفح جوها المحرور بالطراوة المنعشة حين غمزنا الجرس مستأذنين على الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد بك ، وكان جوسقه الأنيق غريقاً فى سكون المستغرق الحالم ، وحديقته البهيجة ترف على جوانبه الأربعة بالجمال والعطر فتذهب عن صمته الانقباض وعن سكونه الوحشة ، وكان كل شىء يقع عليه طرفك فى الحديقة والدار يعلن عما وراءه من مزاج حكيم ، وذوق فنان ، ونفس شاعرة

كان الأستاذ على عادته يستريض مع أرسطو فى كتابه (الطبيعة) وهو السفر الثالث الذى يخرجه للناس من آثار المعلم الأول ، وفى رأيه انه أجل كتب أرسطو وأدلها على سمو عبقريته وسر نبوغه . لقينا فى البهو لقاء ذوى البيوتات الكريمة والأنبهاء القديمة فسلم فى أريحية وحيا فى هشاشة ، ثم خيرنا بين مجلس الدار ومجلس الحديقة فاخترنا هذا ، وجلس ثلاثتنا على كراسى قصيرة القواعد وثيرة المقاعد حول منضدة مستديرة فوقها مظلة صيفية على طراز ما يستعمله المصطافون على شواطىء البحار وفى فنادق الجبال ؛ وجلس الأستاذ الحكيم قبالتنا على كرسى له ظلة كالمظلة المستطيلة تقى الجالس فيها وهج الشمس . أما كلبه الضخم الجليل فقد ذهب يتمادى فى المماشى المزهرة ، ومن حين إلى حين كان يعود ليداعب السامرين على قدر مايفهم من الدعابة .

أخذ الأستاذ يطارحنا الحديث – على نحو ما كان يتحدث إلى تلاميذه صديقه أرسطو زعيم المشائين فى مماشيه المظللة – بصوته النقى العذب ، وجرسه العربى الواضح ، وأدائه المتئد الموزون ، ولهجته (الشرقاوية) التى يتعمدها عمداً فى خلال الحديث فتكسبه ظرفا ورقة . ولطفى بك مسامر حلو النغمة ، فكه اللسان : متفنن الحديث ، متخير اللفظ ، فلو رحت تكتب ما يقول لكان قريب الشبه مما تكتب . وبراعة الحديث صفة امتازت بها طبقته التى تأثرها وأثر فيها من أمثال محمد عبده وسعد زغلول والمنفلوطى فأنت فى حضرتهم لا تشتهى الكلام لأن لذتك فى أن تسمع ، ولا تثير الجدال لأن همك فى أن تستفيد . ومجلس لطفى بك يصدق الصورة التى رسمتها له فى ذهنك قبل أن تلقاه من شهرته المستفيضة وأعماله المنشورة : فبديهته حاضرة وفكره نفاذ وبيانه أخاذ وإطلاعه شامل ومنطقه مستقيم وهو يتوخى فى حديثه الافادة واللذة فسامعه لا ينفك راضى العقل ريان العاطفة

وقصارى ما تقوله فيه أنه خلاصة الجيل الماضى بأسره ، وتطبيق صحيح لمدرسة الأفغانى وعصره . وأوضح مظهر لهذا التطبيق كان فى نزعته السياسية وطريقته الكتابية . ففى (الجريدة) نهج للناس سياسة مصرية خالصة لا تتصل بالدعوة العثمانية ولا بالجامعة الاسلامية ، وفى (الجريدة) ابتكر للكتاب أسلوبا لفظه قدر لمعناه ، ووصفه طبق على موصوفه ، وسبيله قصد إلى غايته . فكان مذهباً جديداً جرى عليه "صحفيون" إلى اليوم وأصدق الامثلة عليه أسلوب صاحب البلاغ .

ولطفى بك بارع فى سلسلة الحديث سريع إلى اقتناص المناسبة فلا تمشى على الحديث فى مجلسه أن يبوخ ولا على الصموت فى محضره أن يحرج .

قال حينما استقر بنا الجلوس يعيد التحية ويفتتح السمر : أنا اقرأ ماتكتبونه فى (الرسالة) بشوق ولذة . . . ويسرنى ان الكتابة فى مصر قد بلغت من الكمال الفنى حد

جد ، والأوتار التى تهز النفس لتملأها أملا ، والأوتار التى تبعث النغم بصور بطولة ، والتى تبث الالم ليوقظ من سبات – عود الأديب الشرقى على نحو عود المغنى الشرقى : أشجى أغانيه أحزنها ، وخير نغماته أبكاها

فهل يتقى الله الفنانون والأدباء فى الجيل الناشىء فيصلحوا أغانيهم ويكملوا ما نقص من أوتارهم ، ويستدركوا ما فاتهم ، وينشدوا طويلا نشيد الحياة ، كما انشدوا من قبل طويلا نشيد الموت ؟

الاعجاب ، فأصبحت للالفاظ دلالتها الدقيقة ؛ وللاوصاف بيانها المقصود ؛ أما الكتابة فى (أيامنا) فكانت بالتقريب ؛ فمعانى الكاتب تقريبية وألفاظها الدالة عليها تقريبية ؛ والأثر الذى تتركه فى نفس القارىء — ان كان مبهم أو تقريبي — فقال له أحدنا :

— ولكن سواد القراء يقرأون اليوم بالتقريب

— طبيعى ! فالكاتب أيام كان يكتب بالتقريب كان القارىء لايقرأ واذا قرأ لايفهم فلما ارتقى الكاتب الى التدقيق ارتقى القارىء الى التقريب

ولقد تصرف كتاب العصر فى فنون الكتابة فعالجوا بها شتى الاغراض فى براعة وحذق . ولذلك لا أوافق الدكتور طه على جعله النثر لسان العقل والشعر لسان العاطفة فان من النثر ما يكون شعرا

ثم تشاجن الحديث وتشقق بعضه من بعض فتناول المويلحيين والخضرى وشوقى وأبا النصر والأفغانى والطويل حتى أدى إلى علاقته بالشيخ محمد عبده فقال :

— تخرجت فى مدرسة الحقوق وانا فى الثانية والعشرين من عمرى فرغبت الاسرة فى زواجى وأوعزأبى الى أمى أن تكلمنى فى ذلك فأبيته ، ولم يشأ والدى أن يفاوضنى بنفسه فى ذلك الامر فلجأ الى الشيخ عبده وكانت المعرفة قد اتصلت بينهما بسببى فدعانى الشيخ الى داره . . . .

— لقد كان حسنا من الامام أن يجمع قلوب الشباب حوله ويتدخل بالنصح فى أمورهم الخاصة

— لم يكن الامر فى التعميم والاطلاق على مافهمت ؛ فقد كان الشيخ فى علاقته بالناس على انقباض وتحفظ والشباب أنفسهم هم الذين سعوا اليه والتفوا حواليه لانه كان بطبعه رجل ثورة ؛ ولان اتصاله بصالون نازلى هانم ومصطفى فهمى وكرومر أوهن أسبابه بالقصر وأيبس مابينه وبين الخديو ؛ ولانه كان يدعوالى الاصلاح والتجديد فكان قريبا بنزعته الى هوى الشبان ؛ ولانه كان ينتدب فى كل عام لامتحان طلاب الحقوق المنتهين وقد اتصلت به معرفتى بسبب ذلك الامتحان نفسه . . .

— ش ت ! ! فكف الكلب المطيع عن النباح وكان ينبح شيئا أو شخصا خارج السور

— Viens ici فجاء الكلب الوديع حتى دنا من سيده

— Couches toi فانتبذ مكانا قريبا ونام

ثم عاد الاستاذ الى حديثه يقول : اقترحوا علينا فى امتحان الانشاء ان نكتب فى هذا الموضوع :

كيف كان للحكومة حق عقاب المجرم ؟ وجعلوا زمن الاجابة اربع ساعات على ما اظن . فكتبت المذاهب الاربعة التى قررها العلماء فى هذه المسألة ثم عقبت عليها ففندتها ونفيت أن يكون للحكومة على أى شكل من اشكالها (حق) عقاب المجرم لانها قائمة على القوة لا على الحق . وأسرفت فى التدليل على ذلك حتى ملأت الكراسة ثم خرجت فذكرت لرفاقى ما اجبت به فاضطربوا وا كتأبوا وقرروا جميعاً أنى لا محالة راسب ، ثم اشتد من جانبهم اللوم والتقريع حتى ذهب من نفسى كل امل فى النجاح فلما كان يوم الامتحان الشفهى وقف الشيخ فقرظ موضوعى وكان قد وضع الدرجة النهائية ، ولكنه نصح لى أن اقتصد الآن فى هذه الآراء اشفاقا على

وكم للشباب من شطط فى الآراء .

زرت الشيخ بعد ذلك فى جهة شارع الشيخ عبدالله نائبا عن فريق من الطلبة التمس منه أن يقرأ لنا درساً فى التفسير بمسجد الفتح على مقربة من مدرسة الحقوق ؛ فأجاب الملتمس وانضم الينا طلبة من دار العلوم فكنا بين الثلاثين والاربعين . وهنالك قويت الصلة بينى وبين الشيخ حتى بلغت حد الالفة .

وفى سنة ١٨٩٧ سافرت فى الشتاء الى جنيف لغرض سياسى ؛ فانتهزت هذه الفرصة وانتسبت إلى جامعتها فى دروس فى الادب والفلسفة أقامتها فى الصيف خاصة للحاصلين على درجة علمية ؛ واتفق أن جاء الشيخ وسعد بك زغلول وقاسم بك أمين مصطافين وكان المرحوم قاسم بك يشتغل فى كتاب تحرير المرأة وكان يقرأ لنا غالبا بعد الظهر فى كتاب L'intelligence للفيلسوف الفرنسى (تين) ومن العجيب أننا كنا اذا التوى علينا فهم عبارة كان الشيخ . وهو أقلنا علما باللغة الفرنسية ؛ يجلو لنا غامضها .

— سافر سعد باشا وقاسم بك وبقي الشيخ عبده فانتسب معي الى دروس الأدب واقبل عليها بجد ومثابرة ؛ وذكر ان أستاذ الادب كان قد قرر علينا فيما قرر كتاب (روى بلاس) لفكتور هوجو نقرأه وندرسه ثم نناقشه وننقده في الدرس أمامه فلما جاء يوم المناقشة أدلى كل طالب برأيه . والاستاذ يعقب على الآراء فيخطىء ويصوب ويصحح حتى نخرج آخر الامر بطائفة صالحة من الآراء الصائبة . وخرج الشيخ شديد الاعجاب بما رأى وسمع وقال : هكذا يكون التعليم ! نحن في بلدنا لا نعلم واعتزم أن يدخل هذه الطريقة في الازهر .

كان مراحنا ومغدانا قبل الدرس وبعده الى حلوانية تجاه الكلية تدعى (اكسلين) ويأبى الشيخ رحمه الله إلا ان يدعوها (اخصلين) على الرغم من وسامتها الظاهرة . وكان زيه وعمامته قيد الابصار وموضع التساؤل ومستجر الحديث في كل مكان نحله — وهنا ذكر الاستاذ بعض الطرف التي تدل على ظرف الشيخ ولطف روحه ورقة شمائله ثم قال : . . . وكان من عادتنا أن المتقدم منا ينتظر المتأخر عند هذه الحلوانية حتى نذهب الى الدرس معاً . ففي ذات يوم جئت قبله فانتظرته ثم انتظرته حتى مضى الوقت الذي كان يصل فيه عادة اذا تأخر وكانت الجامعة قد استقدمت أحد العلماء الطبيعيين ليحاضر في استحضار الارواح والدخول عام والزحام لا بد شديد فلما أزف موعد المحاضرة ولم يبق الا دقائق قلت للفتاة : اذا جاء الشيخ فأخبريه انى انتظرته الى قبيل المحاضرة . ثم مضيت فدخلت مدرج المحاضرات من بابه الاعلى وأخذت مجلسي بين الحضور . ولشد ما كانت دهشتي حين وثبت الى عيني عمامة الشيخ جالسا في الصفوف الامامية بين سيدتين جميلتين يميل على هذه مرة وعلى تلك أخرى !! فداخلني من أمر الامام مالم أكن اشهده . ثم خيل الى ان الزمن يبطىء والدرس يثقل لان رغبتي كانت تلح في الوقوف على جلية الخبر . فلما انتهت المحاضرة اسرعت في النزول اليه وفي عيني دهشة وعلى وجهي تعجب وبين شفتي كلام ! وتبين الشيخ ذلك في هيئتي من بعيد ، فصاح قبل ان احدثه :

— تعال يا لطفي اقدمك الى البرنسيس ! !

وقدمني الى الاميرتين نازلى وخديجة !

وكان ذلك اول معرفتي بالاميرتين المصريتين فدعتانا الى الشاي في الفندق الفخم الذي تنزلانه .

وفي سنة ١٨٩٨ رغب الشيخ ان يقضي معي اياما بالبلد . فما علم بقدمه رجال الادارة والقضاء بالمنصورة حتى توافدوا الى لقائه ؛ وفيهم المرحوم حشمت باشا ؛ وحفل المجلس بالناس على اختلافهم ودار الحديث . فقال الشيخ فيما قال ان السيد جمال الدين كان يقول : اذا اردت ان تحكم على اخلاق امة فاجلس في قهوة من قهوات الفقراء ؛ فما انطبع في نفسك من الانفعالات فاحكم به على هذه الامة من غير تحرج ؛ فأخذت انقض هذا الحكم وأفنده والشيخ يدافع عنه ويؤيده فاستحييت ان الج في معارضة الشيخ في المجلس فأمسكت .

وفي العصر ركبنا جوادين ؛ وخرجنا نرتاض في المزارع والحقول فعدت الى ذلك الموضوع فقال الشيخ لا أدري لماذا لاتصدق هذا ؟ أليست قهوة الفقراء تجمع الفقير الذي سيبقى فقيرا ، والفقير الذي سيصير غنيا ، والغني الذي صار فقيرا ؟

وفي سنة ١٩٠٥ اذكر ان الشيخ كان قادما من الوجه القبلي واظنه كان في السودان ؛ فنزل عندي بالمنيا وكنت يومئذ نائبا بها ، وحضر للسلام عليه رجال القضاء الاهلي والشرعي ووجوه البلد . فلما احتشد المجلس بالجمع قال احد العلماء من رجال المحكمة الشرعية ان كثيرا من النصارى يدخلون في الاسلام فتضاعف بذلك شغلنا . فقال له الامام : فيم تشتغل ايها الشيخ ؟ فقال نعلمهم اركان الدين . فقال له : يكفي ان تقول له صل وصم وزك وحج فقال ولا بد ان نعلمه الوضوء . فقال قل له اغسل وجهك ويديك إلى مرفقيك وامسح رأسك واغسل رجليك ، فقال ذلك لا يكفي ولا بد ان نعلمه حدود الوجه من اين يبتدىء والى اين ينتهي ؛ فقال الشيخ بصوته الجهير في شيء من الحدة : سبحان الله يا سي الشيخ ! ! قل له يغسل وجهه ! كل انسان يعرف حدود وجهه من غير حاجة الى مساح ! !

وهنا استأذنا الاستاذ الجليل في الانصراف على نية العودة اليه من حين الى حين فنستزيد من طرائف هذه الاحاديث .

الزيات

هل للشعر المرسل مكان
فى العربيـــة

للأستاذ محمد فريد أبو حديد
وكيل المدرسة التوفيقية الثانوية

يسر الرسالة أن تقدم الى قرائها صديقاً من خيرة أصدقائها وهو الاستاذ محمد فريد أبو حديد صاحب "ابنة المملوك" التى تحدث عنها بالخير الاستاذ عبد الحميد العبادى، ومؤلف "صلاح الدين"، وكاتب "المرحوم محمد"، ومترجم "فتح العرب لمصر" لبتلر. والاستاذ فريد من أصفى أدبائنا شعوراً وأخلصهم نزعة وأوزنهم اتجاهاً، وهو جندى باسل من جنود الادب العربى، أغرم بالقراءة والبحث والكتابة واسرف حتى خطره من ذلك داء مؤلم عوقه عن اخوانه وتلاميذه وقرائه بضعة شهور، فنحن بتقديمه اليوم نقدم التهنئة الخالصة لاصدقائه بسلامته. والبشرى الطيبة لعشاق أدبه وقرائه.

(التحرير)

قرأت مقالين قيمين فى الرسالة بعنوان «مجمع البحور» تعرض فيهما كاتباهما الفاضلان إلى الشعر المرسل ومكانه فى اللغة العربية. وليس بالعجيب أن ينفر بعض الكتاب من أسلوب لم يألفوه كما أنه ليس بعجيب أن ينكر الاديب بدعة فى الادب العربى اذا ظن أن تلك البدعة قد تدخل اليه ما لا يزينه أو ما قد يتخذ سبيلا إلى التزييف والابتذال. ولكنا مع ذلك لا نجد بدا من التسليم مع المنطق السليم بأنه اذا كان يراد ادخال بعض أنواع من التأليف فى اللغة العربية فلا بد من وسيلة لفك قيود القافية. فالقافية غل متين يمنع الاسترسال فى القول واذا كان الاسترسال والاطالة لازمين كانت القافية حجر عثرة لابد من ازالتها. فالشعر القصصى والرواية الشعرية لابد فيهما من ترك القافية أو الاحتيال عليها لانه من الطبيعى فى الشعر القصصى أن يصور الشاعر صورا كثيرة واضحة قد يحتاج فى تصويرها إلى نظم آلاف الابيات. ولذلك يحتاج الشعر القصصى الى أن يكون النظم حرا لا يلتزم فيه قافية تضطر الشاعر إلى ما يجعل المعنى مبهما أو مقتضبا. وفى هذا وحده علة وجود الشعر المرسل فى لغة مثل اللغة الانجليزية.

وإنما يورد للشعر المرسل عيبان أولهما أنه يحرم الاذن من موسيقى القافية. والثانى أنه يحطم الحدود بين الابيات فلا ترتاح الاذن الى ما اعتادته من الوقف فى آخر كل بيت والترنح مع الوزن من بدء مقدور الى خاتمة منتظرة. وهذا قول لا شك فى أن به حقا كثيرا، فمن أراد الموسيقى والغناء فلابد له من شعر موزون خفيف الروح اذا بدأت أول قطعة منه توقعت ما يليها، وإذا سمعت جرس القافية فى أول بيت توقعت تمام النغمة بجرس ما بعدها. غير أنا لا نقصد أن يكون شعر الاغانى مرسلا فانما للمرسل موضع غير الاغانى وهو كما ذكرنا ضرورة يلجأ اليها من أراد الاطالة فى غرض من الاغراض

وقد قال أدباء ممن يؤثرون الابقاء على القافية فى كل صنوف الشعر أن الشعر المرسل لا ضرورة اليه، فاذا شاء امرؤ أن يطيل وصفا أو يؤلف قصة فما من شىء يمنعه من أن يفك نفسه من قيدى الوزن والقافية جميعا ويجعل قوله نثرا صافيا. وليس فى مقدرة أحد أن يقنع الناس برأيه فى مسألة ادبية باكثر من أن يعرض عليهم ما يستطيعون بناء حكمهم عليه، فان الحكم فى مسائل الادب مرجعه إلى الذوق وموقع الكلام من النفس. وليس من قصد أحد أن يتعصب لاسلوب خاص؛ فانه لا مأرب لاحد فى ذلك إلا أن يكون لذلك الاسلوب فى نظره ميزة على سواه. على أن مجال القول فسيح لمن شاء الانتصار للشعر المرسل؛ فانه فوق النثر فى أنه موزون وللوزن حظ من الاثر الموسيقى الذى يمتاز به الشعر، كما أن الشعر المرسل يجعل الاديب ينحت قوله على نمط مقدر، فتخرج المعانى فى ثوب مقدود على قدر ومقياس ينحيانه عن الفضول ويكسبان الاسلوب شيئا من الاناقة التى تنشأ عن اختيار الالفاظ الموافقة للوزن وتزويقها وتوثيق الاتصال بينها.

وبعد فذلك أولى من تلك الحجج. ولهذا قد آثرنا أن نختار قطعة من تأليف ملك الشعر المرسل وهو شكسبير فى روايته المشهورة (عطيل) وقد عرضوها على القراء مترجمة مرتين مرة منها من قلم الشاعر الكبير (خليل مطران) فى نثر سهل حلو أدى المعنى اداء دقيقا فى أكثر المواضع ولكنه على كل حال لا يعاب عليه شىء فى سلاسته ووضوحه. والترجمة الأخرى من قلم رجل آخر واته القدرة على أن يؤدى المعنى الانجليزى فى شعر مرسل. ورأينا أن نقرن بين الترجمتين حتى يمكن للقارىء أن يحكم بينهما ويحدث لنفسه رأيا فى أفضلهما والقطعة المختارة هى نبذة من الموقف الذى كان بين (ياجو)

و (عطيل) يحاول فيه (ياجو) أن يظهر نفسه فى مظهر الصديق الناصح ويدس فى حديثه سم سوء الظن بينه الى قلب (عطيل) ليجعله يحقد على زوجته الفاضلة راميا من وراء ذلك إلى غرض مادى شخصى ظن أنه لن يبلغه الا بالقذف فى امرأة عطيل وتصويرها فى صورة من تهوى رجلا آخر اسمه (كاسيو) كان ذلك الواشى (ياجو) يريد الايقاع به . وعطيل يحب امرأته حبا شديدا فكان على الواشى المخادع أن يحكم حيلته ومكره حتى يستطيع أن يثير الشك فى قلب ذلك الزوج المحب . فابتدأ متظاهرا بالتردد فى اتهام الزوجة وجعل يلمح الى أن الشرف أغلى متاع للمرء حتى اذا ما رأى (عطيل) ينساق مع الغيرة جعل يتظاهر بذم غيرة الأزواج على نسائهم حتى دفع الزوج المسكين الى أن يفتح قلبه وعقله للاتهام . وهذا البدء هو الموضع الذى نقلناه .

* * *

قال مطران فى ترجمة تلك القطعة :

ياجو : حسن السمعة للرجل والمرأة ياسيدى العزيز أثمن جوهرة من حلى النفس . من يسرق كيس نقودى يسرق شيئا زريا . كان لى واصبح له وكان قبلها لألوف آخرين . اما الذى يسرق حسن سمعتى فيختلس شيئا لايغنيه ويجعلنى فقيرا جهد الفقر .

. . . .

. . . .

عطيل : وايم السماء لاعرفن أفكارك

ياجو : لن تعرفها ولو كان قلبى فى يدك . فهل تصل اليها وذلك القلب فى حراستى .

عطيل : آه!

ياجو : أى مولاى احذر الغيرة . تلك الخليقة الشوهاء ذات العيون الخضراء التى تسخر مما تتغذى به من لحوم الناس . الرجل الذى يثلم عرضه فيعرف مصابه ويكره جالبه عليه سعيد سعيد بجانب ذلك الذى يقضى الدقائق الجهنمية شغفا إلا أنه مستريب . عاشقا شد العشق ولكن تساوره الشكوك

. . . .

وقال المترجم الآخر فى تأدية القطعة نفسها :

ياجو : شرف الانسان أغلى – سيدى – .
من سواد القلب هذا يستوى
فيه من كانوا ذكورا أو إناثا .
ان من يسرق مالى انما
نال منى تافها غير خطير
انما المال متاع هين
فلقد كان معى ثم مضى
ليديه بعد حين مثلما
كان قبل الآن عبدا لألوف
انما سالب عرضى نال ما
ليس يغنيه وقد أفقرنى

عطيل : قسما لابد من كشف ضميرك

ياجو : لا . لن تكشفه حتى ولو
كان ذاك القلب مابين يديك
لا . ولن أفصح مادام هنا
بين أضلاعى .

عطيل : ها!

ياجو : أيها السيد حاذر – لاتطع
هذه الغيرة – حاذر إنها
غولة ذات عيون خضرة
إنها تسخر من مقتولها
بعد أن تنهشه – كن حذرا
ان من يعرف فى زوجته
انها تخدعه : لكنه
ليس يهواها فلن ترعبه
انما البؤس لمن فى شكه
يتلظى والهوى يكوى فؤاده

عطيل : يالاشقاء

ياجو : الفقر مع القناعة غنى بلا جاه عريض . اما النعم التي لاتحصى فتكون فقرا عقيما عقم الشتاء البارد للذى يخشى أبدا أن يصبح معسرا . اللهم ياذا الراحم أعف من الغيرة نفوس امثالى

عطيل : لم لم كل هذا اتظن انى سأعيش هذه العيشة مغيرا ظنونى كلما تغير هلال . كلا . متى نفذ الريب ثبتت النفس على حالة معه . تبدل منى بتيس قطيع يوم أدع نفسى بين أيدى الشبه التى تحدثها كل دسيسة . أنا لاتستفز غيرتى بأن يقال لى إن مرأتى جميلة وانها لطيفة المحاضرة وانها تحب معاشرة الناس وانها طليقة النفس فى أحاديثها وتغنى وتلعب وتحسن الرقص كل هذه الأفعال تكون فاضلة متى كانت المرأة فاضلة . الخ

عطيل : واشقاءاه

ياجو : موسر من كان فى الفقر قنوعا
وأشد الفقر مال طائل
مع خوف الفقر . ربى نجنى
من لظى الغيرة واحفظ منه أهلى

عطيل : لم هذا القول ؟ هل تحسبنى
ذلك الغيران يقضى دائما
سابحا فى غير من شكه
مثلما يسبح فى ابراجه
قمر الليل ؟ فلا كنت اذن
إننى إن كنت أمضى دائما
مثلما تحسب لم أبلغ سوى
مبلغ التيس . ولكن عزمتى
عزمة لاشك فيها إن بدا
لى وجه الريب . إنى لا أرى
سببا للريب عند امرأتى
لو يقول الناس عنها انها
ذات حسن . تشتهى الأكل اللذيذ
أو تحب الناس . أو نزارة .
أو تغنى . بل إذا مازعموا
انها تلعب أو تحسن رقصا
ليس هذا الوصف عيبا . إنه
صفة محمودة عند العفاف .

ولعلي أستطيع أن آتى لقراء الرسالة ببعض أمثلة أخرى من هذا النوع من أساليب القول . تاركا لهم أما الانتصار له وإما خذلانه . فاذا وجدوه صالحا كان بابا يستطيع ذوو المقدرة من شبان الأدباء أن يلجوا منه الى ميادين فسيحة .

العشق النجمي

للدكتور محمد عوض محمد

لئن كنت أيها القارىء ممن وقاهم الله غائلة العشق، ولم تتفجر في صدورهم قنابل الغرام، ولم تضع المقادير قلوبهم بين سندان الشقاء ومطرقة البلاء؛ إذن فاحمد الله، واشكر جدك الباسم!

لكن إذا كنت خليا فاذكر الشجي. ولا تمنعك السعادة من أن ترثي للشقاء؛ فان لصرعى الغرام عليك حقاً: أن تذرف من أجلهم لتراً أو لترين من الدمع الساخن؛ ثم تسقي به ثراهم وتروي به الطلحة الحزينة التي تظلل جدثهم.

* * *

وإني محدثك اليوم عن ضرب جديد من العشق، أو على الأقل ضرب كنت أحسبه جديداً .. إلى أن ألفيته قديماً، شأن كل هذه الأشياء التي يطلع علينا بها المجددون ..

بيد أن العشق الجديد الذي نحن بصدده. إن لم يكن جديداً؛ فقد استحدثنا له اسما جديداً. ودعوناه «العشق النجمي» .. وهو كما ترى اسم طريف؛ ليس في الكتاب من سبقنا اليه ... ولا خير في كاتب لا ينهض للجليل من الأمور فيبتدع لها الجديد من الاسماء.

وأول من أصيب بالعشق النجمي فيما نعلم؛ أو على الأقل أول من سجلت اصابته رسمياً. هو العباس بن الأحنف إذ يقول عن حبيبته:

هي الشمس مسكنها في السماء ... فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع اليها الصعود ... ولن تستطيع اليك النزولا

هكذا كان ذلك العاشق المسكين: يطلب ما ليس اليه سبيل، ويظمأ والشراب عزيز. ويشتهي وقصارى جهده أن يشتهي. ولعمرك ما دام مناط حبه الشمس. فليس حظه منها سوى التطلع والتحديق. والزفير والشهيق .. هل كان يعلم عفا الله عنه! أن بينه وبين الشمس ٠٠٠ر٠٠٠ر٩٢ ميلا في الصيف و٠٠٠ر٠٠٠ر٩٣ في الشتاء؟ وهي في كلا الحالين بعيدة المنال؛ ليس اليها في شتاء ولا صيف وصول.

ومن العبث أن ننصح أمثاله من العشاق أو نعذلهم، أو نطلب اليهم أن يصرفوا هواهم إلى الممكن المتيسر، والقريب الداني. وأن يراعوا صحتهم؛ فان في طلب المحال سقما وسهداً وإن التحديق في الشمس يضني القلب كما يضني البصر .. ولكن هيهات ...

إن المحب عن العذال دائماً في صمم.

***

وأحسب القارىء قد أخذ الآن يفهم ما أعنيه بالعشق النجمي. وأظنه يتوهم أن العشق النجمي هو عشق الشيء البعيد المنال .. لكن هذا ليس الذي أرمي اليه. إن العشق النجمي هو عشق النجوم نفسها .. أجل النجوم التي في السماء على طريقة العباس بن الأحنف المذكور. ورويداً يظهر لك ما أضمره. شيئاً فشيئاً.

***

هنالك أمراض تصيب الناس من آن لآن. لكنها تصيبهم فرادى. أي تصيب هذا مرة؛ وذاك مرة أخرى. ثم يأتي بعد ذلك زمان تصبح فيه تلك الأمراض وباء يجتاح العالم كله إقليما بعد إقليم؛ وشعباً بعد شعب.

وهكذا «العشق النجمي» كان فيما مضى يصيب الناس فرادى؛ فأمسى الآن وباء شائعاً فاشياً؛ قد ملأ السهل والجبل وانتشر في المشرق والمغرب. وسبب ذلك أن قد ظهرت في العالم سماء جديدة: سماء غير السماء التي ألفنا .. وهذه السماء الجديدة تدعى «السنما» وقد امتلأت أرجاؤها بالنجوم.

والعشق الذي تتأجج ناره في قلوب المغرمين ببعض هذه النجوم لا يختلف، في كثير ولا قليل، عن ذلك الهوى المبرح الذي وصفه لنا العباس بن الأحنف. وقد يظن بعض البسطاء أن نجوم السنما أدنى الينا وأقرب منالا؛ إذ نراها أمامنا ونشاهدها بأعيننا. وهذا لعمرك خطأ محض! فانها قريبة على بعد، بعيدة على قرب.

والشرق نحو الغرب أقرب شقة ... من بعد تلك الخمسة الأمتار ...

***

والآن قد أدركت أيها القارىء ما « العشق النجمى » وأنه هو تلك اللوعة التى تحرق قلوب الناس فى مشارق الأرض ومغاربها من أجل بعض النجوم ، التى تدور فى أفلاك تدعى « الأفلام » فى سماء يسمونها « الشاشة » البيضاء

فالعشق النجمى إذن منسوب إلى نجوم السما ؛ وبالله لا تقل كواكب السما ! لأن الكواكب فى علم الهيئة قريبة المنال دانية المزار ومن علمائنا اليوم من يحلم بالوصول إلى بعض الكواكب كالمريخ — أما النجوم فبعيدة بعد الشىء المستحيل وكذلك العشق النجمى فذن مرامه بعيد ، و أربه محال .

***

وأكبر مايمتاز به هذا العشق أنه عذرى . . فانك قد تولع بنجمة فتانة من نجوم هليوود ، فيمتلىء بحبها قلبك ، وتملك عليك مشاعرك ، فلا ترى فى الأرض الفسيحة غير وجهها ، ولا تسمع غير صوتها . هى حلمك إذا هجعت ، ونجواك إذا صحوت إن أبصرتها فى قصة حزينة استولى عليك الحزن والألم . وإن أصابها برد أو زكام أصابك مثلها سعال وزكام . وإن رأيتها ويا للهول! — صريعة قتيلة ، قطع الحزن نياط قلبك ، وأظلم العالم فى وجهك ؛ فلا تزال كئيباً أسيفاً ؛ جاحظ العين متقلص الشفتين ، حتى تراها فى فلم آخر فرحة ضاحكة ؛ فيسرى عنك وتبرق أسارير محياك . وتضحك حتى تبدو نواجذك . .

ومن الغريب أنك لا تأخذك الغيرة حين ترى عشاقها الكثيرين ، ولا تستنكر منها أن تبدل فى كل (فلم) زوجا مكان زوج او صاحبا مكان آخر . لا يهمك من هذا كله شىء لأنك لا تفكر فى غير سعادتها ؛ فكل ما ترضاه ترضاه . ويحلو فى عينك ما يحلو فى عينها . بل لقد ألهاك التفكير فيها عن التفكير فى شىء آخر . .

ثم أنت بعد هذا كله لا ترجو نوالا ولا وصالا ؛ تعلم أنها بعيدة عنك بعد النجم . وإن قربها منك الفلم . — وقد رضت النفس على هذا البعد الممزوج بالقرب ، وهذا النوال المطوى على الحرمان . وهذا الوصل الذى هو أدنى إلى القلى والهجران . فلا تريد على حبك جزاء ولا لدائك دواء . ذلك أن هواك عذرى أفلاطونى برىء . فلا تريد لنارك المتأججة أن تدفأ ، ولا لغليلك المستعر أن يشفى . حب هو الغاية والوسيلة ؛ نار تأبى إلا اضطراماً ، ودمع يأبى الا انسجاما . وتنور يريد أن يفور ، ولو كان يحاول له أن يثور . من غير مأرب تنشده ، أو أمل تريد تحقيقه ، أو غاية تبغى الوصول اليها . . بل إن الحب هو الشغل الشاغل عن كل أمل أو مأرب أو مرام . .

* * *

تلك إذن هى الظاهرة الأولى للعشق النجمى : أنه هوى عذرى طاهر عفيف نظيف . أما الظاهرة الثانية لذلك العشق . فهى إنه يصيبك من بعيد . . وقديماً وصف لنا الشريف الرضى هذه الظاهرة فقال يخاطب نجمته ! :

سهم أصاب وراميه بذى سلم
من بالعراق ... لقد ابعدت مرماك ! . .

ذو سلم هذا مكان فى جوار المدينة المنورة ، يكثر الشعراء من ذكره حين ينسبون . ولو كان لديك أيها القارىء مصور جغرافى لأمكنك أن تقيس المسافة بين العراق وذى سلم ، ولعلمت أنها لا تتجاوز سبعمائة من الأميال . ومع ذلك يدهش الشريف الرضى لأن سهم الحب قد أصابه من ذى سلم والشاعر فى العراق لكن تلك المسافة لاتعد شيئاً إذا قورنت إلى البعد الهائل الذى يفصل ما بين هليوود وبين وادى النيل السعيد . . وأن النجمة الفاتنة لترمى بسهمها من تلك الأقطار القاصية ، فلا يلبث أن يصيب صميم الفؤاد ؛ ويفتت الأكباد ، فى شرق العالم وغربه . لاتحول دونه بحار ولا قفار . . .

وفى الحب العادى قد يكون البعد من أسباب السلو ؛ والبعيد عن العين بعيد عن القلب فى زعم الناس . لكن البعد بين المحب والمحبوبة شرط أساسى فى هذا الصنف من الغرام . بل إنى زعيم بأن عاشق النجمة لو رآها على قارعة الطريق ؛ وهى تبتاع شيئاً من الحلوى ، أو داخلة إلى دكان الحلاق . لرأى شيئاً كسائر الأشياء وامرأة كسائر النساء ؛ ولما حدثته نفسه بأن قد يصيبه من مثل هذه قنبلة غرام . . بل ولا سهم ضئيل . .

كلا . . إنما يلعب حب النجوم بالارواح عن بعد . . ومن مستلزماته تلك الحجرات المظلمة القاتمة ؛ تبعث فى النفس رهبة ، وتثير فيها شغفاً ورغبة . وهذه الأنوار الساحر تنبعث من مكان خفى ، وتسطع على لوح فضى : ظلام يتوسطه النور ، ونور

هذا العـــــذاب ...

الأستاذ راشد رستم

دخل الغابة ينشد الوحدة الهادئة الهادية، فرآها أول ما رأى في صمت الجذوع وتحملها، ثم تمثلها عند تساقط الاوراق واستسلامها، وفي السكون الشامل الذي يحيط به، وفي اللون الاخضر القاتم الذي يغشاه، ثم سمعها في أنين الغابة الداوي؛ ولاقاها عند الغدير الصغير الجاري، ورآها في قاع مجراه الصافي كامنة بين الحصا الأبيض الناعم؛ ثم شاهدها في تهدل الاغصان واضطرابها، وفي رعشة الاوراق المتحيرة ذات الحفيف المحزون؛ ووجدها ساكنة في الاعشاش الخاوية؛ ولمحها عالقة بأجنحة الطير المتثاقلة وهي تبيت. وفي آخر أشعة الشمس الصفراء وهي تغيب.

***

جلس في تلك الظلال القاتمة وحيداً بين الشجر، ينظر إلى السماء الناعسة يستنجدها وحيها المهيب. أو يستودعها سره العجيب. وقد بدت فروع الأغصان مع الاوراق على صفحة السماء وقت هذا الغروب في لون من سواد كئيب؛ كأنها (دنتلة) الحزن على صدر أملس رائع أسيف. قد صبغته نيران الزفرات والتنهدات بلون الشفق الوردي الهادىء صدر واسع عميق جذاب تحنو عليه شفاه الرحمة والاشفاق بقبلات العطف والحنان تترك فيه أثاراً من حرارة التضامن الكامن في الصدور بين قلب حنون وآخر محزون..

***

لم يفكر في شيء، فقد أحاطت به الافكار من كل جانب؛ قام هارباً من تهافت الافكار متعمقاً في الغابة يطلب الهدوء الأصيل في حضنها الظليل، ومن هاجمته افكاره اعجزته تفكيراته؛ وقد يضيع بها أو هو يبقى بينها حيران زمانا حتى تجذبه احداها فتشغله عن سواها، وهكذا يفر المرء من عذاب الى عذاب

***

على أنه وقد وجد سكينته عند الطبيعة فقد سلبها منه وآلمه فيها ابن الطبيعة — طلع عليه من خلال الاشجار اطفال يلعبون، والناس ملائكة صغارا شياطين كبارا

كمن له الصغار لما رأوه مقبلا هادئا، انتظروه اذ ظنوه سارحا هادئا. فاجؤوه يحسبونه خائفا؛ فلما وجدوه رابطا ثابتا، عادوا يخشونه متحفزا ثائرا. ثم تنبه هو من تيهه فوقف باسما، يدعوهم لاعبا مسالما ضاحكا: ولكنهم من الرجفة الاولى يفرون مستنجدين صارخين. فانجدهم أهلهم في الغابة يتطيرون، يسألونهم عن أمرهم وما دهاهم من مفترس أو روح شرير — فكانوا يبكون صامتين، يشيرون الى مكان قريب

***

مفترس! وحش! روح شرير!!

ليس في المكان إلا ما في الغابة من شجر ووحشة ودوي طويل.

خرج عليهم «الوحش» يدعوهم الى الهدوء والاطمئنان. فتلقوه مؤنبين معرضين؛ فتولى عنهم في غيظ وكمد. مختفيا في الغابة الممتدة الواسعة. تلك الغابة الغنية التي هو سيدها ومالكها والتي يهبها صدقة يسمح بحطبها وحياتها ومتاعها حلالا طيبا للسائلين والمحرومين

يحيط به الظلام. وحسبك تلك الحال السحرية باعثة على الشجن، ومثيرة لكامن الجون.

وهكذا تستطيع النجمة، وهي على سواحل المحيط الهادي أن ترسل أشعتها إلى أطراف العالم، وتنشر شباكها في جميع الأقطار.

***

هذا وللعشق النجمي خصائص أخرى، ولكنا ضربنا عن ذكرها صفحا، لأنها تعد في المرتبة الثانية من الأهمية، وحسبنا ما ذكرناه وصفا لأعراض ذلك المرض.. استغفر الله بل تلك العاطفة القاهرة، التي استرقت قلوب الناس من شباب وكهول: وصفدتهم بسلاسلها وأغلالها. وقد أسلموها قيادهم طائعين خاضعين..

لقد تحسب أيها القارىء أن فيما ذكرناه غلوا أو ان نصيب الخيال فيه أكثر من نصيب الحقيقة.. وفي الحق أننا ما كنا نعلم أن لهذا الشيء وجوداً أو أن شره قد استفحل، وخطره قد اشتد إلى هذا الحد. لولا أن صديقنا العزيز (رشاد) قد أصابه ذلك السهم، فأحزننا مصابه. ولقد تتاح لنا قريباً فرصة أخرى فنحدث القارىء بحديث ذلك الصديق وإن كان حديثاً أليماً...

التجديد فى الادب

يناقش الدكتور عبدالوهاب عزام الأستاذ أحمد أمين فى رأيه عن التجديد فى الأدب ، وقد دفعتنى هذه المناقشة إلى إبداء رأى وذكر مناقشة ، أما الرأى فهو : إن المعاجم اللغوية التى يقول الأستاذ أحمد أمين ان فيها « ألفاظا كثيرة ليس لها قيمة إلا أنها أثرية تحفظ فيها كما تحفظ التحف فى دار الآثار » ، فى هذه المعاجم ألفاظ كثيرة لها قيمة عظيمة عند من يحسن الأداء بها فى مواقعها وكثير منها يؤدى لنا عن معان كنا نظن أن ليس لها فى الالفاظ العربية ما يدل عليها ؛ فالبحث عن هذه الألفاظ واستعمالها يزيد من غير شك فى حيوية اللغة ونمائها ، وقد فعل الدكتور محمد شرف والدكتور أحمد عيسى شيئا من ذلك فى معجميهما عن الحيوان والنبات ؛ فكشفا فى هذه القواميس عن ألفاظ عربية لنباتات وحيوانات كنا نستعمل عند الدلالة عليها اسماءها العلمية اللاتينية . وذلك لظننا خلو لغتنا من أسمائها .

وأما ماذكره الأستاذ أحمد أمين من إلغاء هذه الألفاظ لأن الذوق العام للقراء لايسيغها الآن ، فأنا أظن بأن درجة المعرفة التى يصل اليها جمهور القراء ليست كافية الاعتبار والحكم على اللغة والكاتبين . والكاتب النافذ البصيرة له أن يقدم لهذا الجمهور القارىء ما يرى أنه مفيد من الألفاظ للابانة عما يريد من معنى أو إحساس ؛ ولو كان الجمهور القارىء لايعرف هذه الألفاظ أو لا يسيغها ذوقه ، ولكن المهم أن يقتصد فى ذلك على الضرورى المفيد ولايتعمد الأغراب .

هذا مع ملاحظة أن مالايسيغه ذوق الجمهور هو الاقلية من هذه الألفاظ المهجورة .

هذا عن رأيى ؛ وأظننى فيه قريبا من الدكتور عزام وإن كنت أخالفه فى بعض الشواهد التى أوردها فى مقاله وفى بعض الآراء كذلك .

وأما عن المناقشة فقد جرت منذ شهور بينى وبين كاتب من كبار كتابنا المتحمسين لتبسيط اللغة ؛ وكان يقول إن هذه الألفاظ الموجودة فى القواميس هى مثل الزوائد والبقايا الأثرية فى جسم الانسان « كالزائدة الدودية وعجب الذنب مثلا » ويجب علينا طرحها لنكسب الوقت والسرعة ؛ فقلت أنا : إن فى هذه القواميس ألفاظا تؤدى لنا عن معان نتحير الآن فى الأداء عنها بكلمة واحدة ، فنعبر عنها بجملة أوسطر ، فلو أننا استعملنا هذه الألفاظ وأشعناها لا كتفينا بلفظ واحد عن هذه الجملة أو السطر ، فكسبنا بذلك الوقت والسرعة ولفظا جديدا يزيد فى لغتنا سعة ؛ فقال : اذكر مثلا ؛ قلت : أقرب مثل هو صديقك فلان الذى عرفتنى به أخيرا ؛ فقد لاحظت أن لون عينيه مختلف فله عين زرقاء وأخرى كحلاء . فلو أردت أن أذكر لك هذه الصفة فيه استعملت لها سطرا من الكلام ؛ ولكنى وجدت فى القاموس كلمة واحدة تؤدى هذا المعنى كله وهى « أخيف » وهذه الكلمة نفسها تغنينا عن جملة أخرى ، فان الابناء الذين هم من أم واحدة وآباء شتى يقال لهم « أخياف » فيمكنك فى

اقبل على الغدير الصغير ، وهنالك أمام خرير الماء الطاهر البرىء ؛ الجارى من الازل الى الأبد ، وقف فى اطراق وصمت وتسليم قليلا ثم نظر الى العود الذى يتوكأ عليه . وهو من حطب الغابة ؛ وكتب به فى بطء ولين وتفكير كلمات لاشك أنها ذاهبة مع الماء فى مجراه . .

ثم أتخذ سبيله عائدا الى البيت الذى يأويه وكان قد هجره بمن فيه وما فيه

واذ هو يمشى وئيدا كئيبا وقد طواه غسق الليل . أبصر المحتطبين خارجين من الغابة فرحين محملين وهم يذكرون الوحش المفترس والروح الشرير . .

***

تثور نزعاته تطلب لوجودها جهراً . ولكنه يكظمها فى نفسه صبرا ؛ ثم تفور عواطفه فورا . فيحبسها فى صدره غورا ثم يسرع الخطى على غير هدى قليلا حتى يدله الألم السارى وسط ظلام الحياة . على حقيقة عذاب الانسان للانسان ؛ ومكان الاحسان عند الانسان ؛ وان الجهر بالاحسان احسان . .

يذكر ما كتب على صفحة ذلك الغدير الصغير . ويردده فى ألم وثورة وأسف — حقا إن فى صمت الاحسان جنة للناس وعذاب للمحسنين . .

المعادى راشد رستم

الاول أن تقول « فلان أخيف » بدل « فلان إحدى عينيه زرقاء والاخرى كحلاء » وفى الثانى « هؤلاء الاخوة أخياف » بدل « هؤلاء الاخوة من أم واحدة وآباء شتى » . وقد كسبنا بذلك الوقت والسرعة ولفظة جديدة ؛ وهذه الكلمة لأحد يقول « حتى الاستاذ أحمد أمين » إنها نافرة أو ثقيلة على الجيل الحاضر ، وقد استعملها ابن زيدون فى قطعة جميلة من شعره .

فقال صديق الكاتب الكبير فى صيغة التحدى والتهكم : إنك بذكر هذا اللفظ أطلت فى الوقت واضعفت من السرعة لانك ستشرحها للقارىء بهذه المعانى التى ذكرتها ؛ فكان خيراً لك وله لو أنك اكتفيت بالشرح عن المشروح فلم تذكر اللفظ الواحد ثم تتبعه بجملة شارحة ؛ فقلت أنا أولا لا أسلم بضرورة الشرح فان القارىء واحد من اثنين : قارىء يقظ يقرأ ليفهم ويفتش عن كل كلمة ولا يكتفى بالفهم الاجمالى ؛ وهذا القارىء عندما يجد هذه الكلمة — إذا لم يكن يعرفها — سيبحث عنها فى القاموس حتى يعرفها ؛ ومن المرجح أنه بعد ذلك لن ينساها ، وهذه وحدها فائدة أخرى ؛ والقارىء الثانى يمر على الكلام مرا و يكتفى بالفهم الاجمالى ؛ فهذا ليس يهمنى أن أشرح له ؛ ولعله هو أيضا لا يهتم لشرحى ؛ وعلى فرض التسليم بضرورة الشرح لهذه الكلمة ومثلها ؛ فان الشرح لن يكون إلا بمقدار ما تشيع هذه الالفاظ وتعرف لجمهور القارئين وعند ذلك تترك وحدها فيفهمها القارىء ونكسب نحن وهو الوقت والسرعة وألفاظاً جديدة تزيد فى لغتنا وتنميها ؛ ثم ذكرت له بعضاً من الألفاظ والجمل استعملها هو بدءاً وشرحها فى أول ما استعملها وأصبحت الآن مفهومة لكل قارىء وشائعة على أقلام الكاتبين وألسنة الناطقين حتى كأنها تستعمل منذ مئات السنين

ولعلنا نجد فى المقالات القادمة للاستاذ أحمد أمين أننا فهمنا من كلامه غير ما يقصد هو . وعندئذ فنحن على وفاق ؛ أو فى « خلاف لفظى . . . » كما يقول الاصوليون

« محمود ع . الشرقاوى »
عالم من الازهر

(الرسالة) جاءنا من الدكتور عبد الوهاب عزام مقاله الثانى فى الرد على الاستاذ أحمد أمين فى موضوع التجديد . وسننشره فى العدد القادم .

فلسفة كانت

للاستاذ زكى نجيب محمود

كانت الفلسفة وهى فى مهدها مطمئنة إلى تلك الأداة التى اتخذتها سبيلا إلى تفهم الكون وما يحوى من سر مكنون ؛ فكانت تأتمن هذا العقل الانسانى وتثق به وثوقاً لا يعرف الشك ؛ ولكنها ما لبثت أن اشتد ساعدها واستقامت على قدمين راسختين ، فانقلبت على تلك الأداة نفسها ، وداخلها الريب فى أمانتها ودقتها فيما تنقل إلى ذهن الانسان من صور العالم المحس ؛ فتناولتها بالبحث والتحليل

وتظن أن (لوك) كان أول من تصدى لذلك البحث فى تاريخ الفكر الحديث ، وقد انتهى بعد بحثه الطويل إلى إنكار الآراء الفطرية (Innate ideas) التى يقول دعاتها أنها تولد مع الانسان كمعرفة الخير والشر مثلا ، وأكد أن العقل عند ولادة الطفل يكون كالصفحة البيضاء ؛ خالياً من كل شىء ، وقابلا للانفعال بالبواعث المختلفة : فاذا ما مرت به تجارب الحياة المختلفة ؛ تركت فيه آثاراً لا تمحى ؛ وطريق تلك التجارب الى العقل هى الحواس وحدها ؛ وليس فى حنايا العقل أثر واحد لم يسلك طريق الحواس أولا ؛ فالآثار الخارجية تنتقل إلى الذهن فى إحساسات مختلفة ؛ ثم تولد هذه الاحساسات شتى الآراء والافكار . ومادامت الأشياء المادية وحدها هى التى يمكن ان تنتقل عن طريق الحواس ، إذن فكل معلوماتنا مستمدة من الاجسام المادية دون غيرها . ومعنى ذلك أن المادة عند (لوك) هى كل شىء

ثم جاء (بركلى) وخطا بعد ذلك خطوة جريئة . فقد سلم بمقدمات لوك : ولكنه اختلف وإياه فى النتيجة . ألم يقل لوك بأن معلوماتنا جميعاً مشتقة مما يجىء عن طريق الحواس ؟ إذن فنحن لاندرى عن الشىء الخارجى إلا الاحساسات التى تنبعث الينا منه : والافكار التى تتولد من هذه الاحساسات عند وصولها الى الذهن . خذ تفاحة مثلا : فهذا لونها يصل اليك ضوءاً عن طريق العين ؛ وهذه رائحتها تصل عن طريق الأنف ، وذاك طعمها تعلمه عن طريق الذوق ؛ وذلك ملمسها وشكلها يصلان

اليك عن طريق أعصاب اليد . فاذا تناول هذه التفاحة كفيف البصر ؛ علم عنها كل شيء إلا لونها ؛ وإذا كان فاقداً لحاستى الشم والذوق ؛ اقتصرت معرفته على الشكل والملمس ، فاذا فرضنا أن أعصاب يده فقدت عملها أيضا ؛ أنكر صاحبنا وجود التفاحة فى يده مهما قدمت إليه من وسائل الاقناع .

فلولا الحواس لما كان للأشياء الخارجية وجود بالنسبة الينا على الاقل . فالحواس هى التى كونتها . ولذلك لم يتردد بركلى فى انكار المادة انكاراً تاماً . ولا يعترف بوجود شيء الا حقيقة واحدة يحسها فى نفسه وهى العقل

أجهز بركلى على المادة فمحاها من صفحة الوجود . وأشفق على العقل فسلم به ، ولكن جاء بعده هيوم ؛ فأبى أن يقف عند هذا الحد تواضع من الانكار ، وسارع إلى العقل بمعوله ألقاه فى هوة العدم ! ما هذا العقل الذى يتشبث بوجوده بركلى ؟ إبحث فى نفسك بحثاً باطنياً وحاول أن تعثر على ذلك العقل باعتباره ذاتاً مستقلة ؛ فلن تعود بطائل ؛ ولن تصادف فى نفسك إلا سلسلة من الافكار والمشاعر والذكريات يسوق بعضها بعضاً . فليس ثمة عقل ؛ ولكنها عمليات فكرية وصور ذهنية لا أقل ولا أكثر . وإذا فقد انهار العقل كما انهارت المادة من قبل ! وهكذا قوضت الفلسفة بفؤوسها كل شيء . ثم وقفت بين تلك الانقاض الخربة لا تجد وقوداً يذكيها ؛ فقد ضاع العقل وضاعت المادة ولم يبق لها منهما شيء ! ؟

ولكن الله قيض لها فيلسوفنا العظيم « عمانوئيل كانت فأعاد البناء من جديد ؛ وشيده على أسس قوية ثابتة لا تزال قائمة حتى اليوم . فقد أنكر بادىء ذى بدء ماذهب اليه لوك والمدرسة الانجليزية انكاراً تاماً . لان التجارب التى يقول عنها لوك إنها مصدر معرفتنا جميعاً ؛ لا يتحتم أن تلازمها الصحة دائما . فهى ان صحت نتائجها اليوم فقد تخطىء غداً ؛ فضلا عن أنها تقتصر على الجزئيات ولا تتعداها الى التعميم الذى ينزع اليه العقل بطبيعته . ومما لاريب فيه أن لدينا من الكليات العامة مايستحيل عليه الخطأ . كأن نقول مثلا ان ٢ × ٢ = ٤ فهذه حقيقة لم نعتمد فى تحصيلها على تجربة خارجية ؛ وانما اكتسبت ضرورتها من طبيعة عقولنا ؛ فليس العقل الانسانى سلبيا ؛ ليس قطعة من الشمع تولد خالية ثم تخط فيها التجارب ما تشاء كما ذهب لوك ؛ كلا ولا هو اسم يطلق على سلسلة الحالات العقلية كما ادعى هيوم ؛ انما هو عضو فعال ؛ يتناول الاحساسات التى تأتى اليه من العالم الخارجى فيؤلف بينها ؛ ويكون منها الافكار المختلفة ؛ ويصبها فى القالب الذى يشاء . العقل الانسانى قوة إيجابية تعمل على تنظيم ملايين التجارب التى تصادف الانسان فى حياته ؛ وتؤلف منها وحدة فكرية منظمة ! ولكن كيف ؟

يجتاز العقل فى ذلك مرحلتين : الاولى هى الانتقال من مجرد الاحساس إى وصول الأثر الى الذهن ؛ الى الادراك ؛ أى فهم ذلك الأثر المعين . والثانية هى الانتقال من هذه المدركات الجزئية الى المعقولات والكليات العامة . وسنفصل هذا الاجمال فيما يأتى :

تأمل نفسك لحظة ؛ تجد عدداً من المؤثرات لايحده الحصر يندفع اليك ويتسلل الى ذهنك عن طريق الحواس ؛ فهذه عشرات الاصوات تنتقل الى اذنك من جهات مختلفة ؛ وتلك آلاف المرئيات تبعث ضوءها الى عينيك ؛ وهاهوذا جسمك يحس فى كل جزء من اجزائه بالمؤثرات المختلفة : يحس نعومة ملابسك أو خشونتها . كما يحس الحرارة والبرودة . فهذه الاحساسات العديدة المختلفة التى تصل الى ذهنك من ابواب متباينة ؛ تسبح فى العقل صماء دون ان يكون لها معنى خاص إلا اذا تألفت أجزاؤها وارتبطت بمكان وزمان ، وذلك التأليف والربط لابد لها من قوة ايجابية ، هى العقل . فانت قد ترى اللون الاصفر وتحس الشكل الدائرى ؛ وتشم رائحة معينة ؛ وتذوق طعما خاصا ولا يكون لكل تلك المؤثرات مدلول واحد . الا اذا جمع العقل هذه الاشتات وربطها بمكان خاص — فى جسم برتقالة مثلا — وعندئذ ينقل احساسك الى ادراك لهذا الشيء المعين فالواقع ان الاحساسات الأولية ليست الا مؤثرات متفرقة تجيء الينا من الخارج . ولا يكون لها معنى بذاتها ؛ وهذا ما يشعر به الطفل فى اول حياته العقلية . اذ يرى لون البرتقالة ويلمسها بيده . ويشمها ويذوقها . ولكنه مع ذلك لا يعرفها فاذا ما نمت قواه العقلية ؛ اخذت هذه المجموعة من الاحساسات تتجمع وترتبط بهذا الشيء . وبذلك ينتقل حسه الى مرتبة المعرفة والادراك ؛ ولا تعود صفات البرتقالة تؤثر فى ذهنه مستقلا بعضها عن بعض كما كانت الحال من قبل . بل تنتقل الى ذهنه كتلة متحدة مترابطة لا انفصال فيها . ولكن كيف أخذت تتجمع هذه الصفات فى الذهن حتى تكون منها كل

لا يتجزأ له مدلول خاص ؟ هل تم ذلك بطريقة آلية ؛ أى اخذت تتراص بجانب بعضها البعض . فسارع لون البرتقالة ووقف بجانب الرائحة والطعم والشكل . حتى تكونت صورة البرتقالة فى الذهن ؛ دون ان يتدخل العقل فى هذا التكوين ؟ هنا يجيب (لوك) ومدرسته بالايجاب وينكره (كانت) كل الانكار ؛ ولا يفهم كيف تتحد جزئيات الاحساس التى سلكت الى الذهن الف سبيل وسبيل من تلقاء نفسها . الا ان يكون هناك قوة تنظم هذه الفوضى الحسية : قوة تؤلف بينها وتوجهها فى الطريق التى تريد . قوة تشكلها وتصبها فى قالب المعنى . هى قوة العقل . وآية ذلك ان الانسان يأتيه فى كل لحظة آلاف الاحساسات ؛ ولكنه لا يتقبلها جميعا ؛ بل ينتقى من ذلك الجيش الجرار من الدوافع والمؤثرات ما يلائم حالته فى تلك اللحظة المعينة ؛ وهذا دليل قاطع على فاعلية العقل ؛ ولو كان الأمر يتم بالطريقة الآلية التى زعمها لوك وهيوم ؛ لما كانت هناك أفضلية لاحساس على آخر . بل يرغم الانسان على قبولها بأسرها . فكل صوت يقرع الاذن لابد أن يصل الى الذهن ؛ وهكذا فى سائر الحواس . ولكن ليس هذا هو الواقع . فها هى ساعتى تدق على مكتبى أثناء كتابة هذا المقال ، ولكنى لا أسمعها لأنى لا أريد أن أسمعها فاذا ما توجهت بارادتى الى أسماعها ؛ تم ذلك على الفور مع أن صوتها لم يرتفع عن ذى قبل . وقد تكون الأم نائمة مستغرقة فى نومها . فتحدث جلبة شديدة . أو تمر موسيقى أمام البيت بطبلها وزمرها . فلا تستيقظ من نعاسها ؛ أما اذا تحرك ابنها الرضيع فى مهده حركة خفيفة ؛ أو بكى بصوت منخفض ؛ هبت من نومها مذعورة . فما الذى أثر عندها هذا الصوت الخافت على مئات الأصوات التى تقرع أذنها ؟ الا أن يكون هناك قوة فعالة تعرف كيف تختار من المؤثرات ما هو صالح ملائم .

خذ مثلا آخر يدلك على إيجابية العقل فى الادراك . أنظر الى هذين الرقمين ٣ ، ٢ : وأجر فيهما عملية الجمع . تسارع الى ذهنك النتيجة وهى خمسة ، ثم أقرأهما ثانية معتزما اجراء عملية الضرب تجىء الى ذهنك نتيجة أخرى هى ستة . هاتان فكرتان أو نتيجتان مختلفتان نشأتا فى الذهن من باعث واحد . وكان السبب فى اختلافهما اختلاف الغرض الذى توجه به الذهن نحو ذلك الباعث ؛ ويتضح من هذا أن العقل ليس مجرد آلة « كمرة » تلتقط الاحساسات كما هى ؛ وعلى رغم أنفها . ولكنه قوة تدعو من البواعث ما تريد . ثم تفكر فيها بأشكال مختلفة . وهو يستعين فى هذا التفكير بالغرض الذى يوجهه الى المؤثرات الخارجية .

ولما كان لا مندوحة للعقل عن أن يفرض مكانا وزمانا يسند اليهما أثر الاحاسيس المختلفة . لانه لا يستطيع أن يتصور مدركات مطلقة ، فليس فى مقدوره مثلا أن يفهم اللون الابيض مجرداً عن « مكان » ولا أن يدرك حادثة الا اذا نسبها الى « زمان » الى ماض أو حاضر أو مستقبل ؛ أقول لما كان لا مندوحة له عن فرض الزمان والمكان لفهم المادة التى تقدمها له المؤثرات الخارجية . اخترعهما اختراعا ، فهما ليسا حقيقتين فى ذاتهما . أى ليس فى الوجود الخارجى زمان ولا مكان ، انما خلقهما العقل ليتخذهما وسائل للادراك ؛ وسبيلا لصب المعانى فى المحسات .

شرحنا فيما سبق كيف تنتقل الاحساسات المنبعثة من الاشياء الخارجية الى ادراك ؛ ونريد الآن أن نوضح الخطوة الثانية التى يجتازها العقل فى أداء وظيفته ؛ عند الانتقال من هذه المدركات الى مرتبة المعقولات أى تصور العلاقات الكائنة بين أجزاء الوجود بعضها ببعض ؛ وبعبارة أخرى تلك الخطوة التى يخطوها العقل من مرحلة التجارب الجزئية الى العلوم الكلية . فكما أن للعقل قوة يتمكن بها من تنظيم البواعث المختلفة فى قالب المكان والزمان ؛ فيدرك بذلك معنى الاشياء ؛ كذلك له قوة أخرى ؛ تجىء بعد هذه ؛ وهى التى تنظم تلك المدركات فى قوانين عامة ؛ كقانون السببية . وقانون الجاذبية . وما الى ذلك من النواميس التى تبوب على أساسها معلومات الانسان ؛ وهذه العملية هى كنه العقل وطبيعته . فالعقل عبارة عن عملية تنظيم التجارب وتبويبها . وهو فى هذا التبويب والترتيب ايجابى فعال ؛ وليس كما توهم لوك وهيوم قطعة من الشمع اللدن التى تشكلها التجارب المختلفة والا فهل تستطيع أو تتصور الوحدة الفكرية التى تشتمل على فلسفة (ارسطو) ؛ والتى تكونت ولا ريب من جزئيات أتته عن طريق التجربة والحواس هل تستطيع أن تتصور ان تلك الجزئيات قد نظمت نفسها بطريقة آلية حتى بدت متماسكة فى فلسفة متحدة . دون أن يتدخل العقل فى ذلك التنظيم ؟

تخيل ان بطاقات دار الكتب قد انتثرت فى غرفها واختلطت ألفها بيائها ؛ فهل تصدق ان هذه البطاقات تستطيع أن تجمع نفسها وترتب صفوفها ؛ وتسلك طريقها الى قمطراتها فى نظامها الابجدى ؟ !

هل يمكن ان يتم ذلك دون أن يتدخل الانسان ويتناولها بالترتيب ؟؟

كذلك حال العقل مع المدركات ، فهي في الكون شتيت متضارب ، وهي تصل الى الذهن في هذه الفوضى : ألوان متباينة ، وأصوات مختلفة ، وأذواق عدة ، وأشكال متنوعة . فيأخذ العقل في ترتيبها وتبويبها حتى ينتهي بها الامر الى هذه العلوم المنظمة المنسقة . وبديهي ان هذا التنسيق لم ينبعث الينا من الاشياء الخارجية نفسها . وإذن فقد أخطأ لوك كل الخطأ حين زعم ان العقل سلبي ، تنقش فيه التجارب بطريقة آلية ؛ فاذا لم يكن الامر كذلك فهل يستطيع لوك ان يبين لنا كيف ان التجارب الواحدة تؤثر في مجموعة من الرجال . فتخرج منهم هذا الغبي وذاك الفيلسوف ؟

كلا ! لا مندحة عن التسليم بايجابية العقل وقوته في تكوين المدركات من الاحساسات أولا ، ثم في تكوين المعقولات من المدركات ثانيا .

وان صح هذا التحليل . فيكون العالم كما نعرفه من تكوين عقولنا وصنعها ، فنحن لا نعلم عن الاشياء الخارجية الا مظاهرها التي تنتقل الينا ، وليس في مقدورنا أن نتغلغل في بواطنها ؛ وقد تكون هذه الصورة الذهنية التي كونتها عقولنا عن العالم الخارجي بعيدة جدا عن الحقيقة في ذاتها ، فنحن لا نعلم عن القمر مثلا الا ما انبعث الينا منه من احساسات زائدا ما عملته عقولنا في تلك الاحساسات ، فتكونت لدينا من هذا المزيج صورة عقلية عن القمر ، أما ان هذه الصورة العقلية تطابق الواقع أو لا تطابقه ، فلا يستطيع البشر أن يجيب !

وهكذا أثبت (كانت) وجود المادة ، الا انه انكر ان تكون فكرتنا عنها على مثال الحقيقة الواقعة .

ثم يعود (كانت) بعد ذلك فيرفض مازعمه لوك من أن العقل يولد كالصفحة البيضاء ؛ ويؤكد في يقين انه انما يرث شعوراً لا يأتيه عن طريق التجربة والحواس ولابد لكل انسان أن يسلم بوجوده ، هو ذلك الشعور الذي يدلنا على ان هذا خير وذاك شر ، هو ذلك الشعور الذي لا يفتأ يؤنبك اذا نبوت عن جادة الخير ويطمئن مادمت سالكها ؛ هو ذلك الشعور الذي تحس من أعماقك انك لو اتبعت ما يمليه عليك ، وحذا حذوك البشر أجمعون ، لكان الخير كل الخير . ذلك الشعور الذي يقف لك بالمرصاد والذي يولد معك . هو الضمير . ومن ذا الذي يستطيع أن ينكر هذا الصوت الواضح الجلي الذي يضيق للشر ويطمئن للخير . فأنت قد تكذب . وقد تنهب حقوق غيرك . ولكن لا يسعك الا الاعتراف ولو أمام نفسك ان هذا خطأ ولو خيرت لما رضيت أن يسود الكذب والسلب بين الناس . وكل انسان على الأطلاق يحمل بين جنبيه هذا الوازع الذي لا تأخذه عن أعمالك سنة ولا نوم ، والذي يملي على صاحبه في غير لبس ولا غموض ما يجوز عمله وما لا يجوز .

وهذا الخير الذي يمليه الضمير انما يقصده لذاته على الرغم من انه قد يتضارب مع صالح الفرد تضاربا صريحا . فالمثل الاعلى الذي يصبو اليه هو اداء الواجب دون النظر الى السعادة الشخصية .

ووجود الضمير دليل قاطع على ما للانسان من حرية الارادة لأن معنى رقابته أن الانسان يستطيع أن يسلك هذا السلوك أو ذاك ولو كان الانسان مرغما على أن يسير في طريق مرسومة لما كان لهذا الضمير فائدة . وكذلك يدل وجود الضمير على خلود الروح . ذلك لان الحياة الدنيوية لا تأخذ المجرم بالقصاص في كل الاحيان ، لا بل تضرب لنا الحياة آلاف الأمثلة بأن الشر هو السبيل الى السعادة الشخصية ، تعلمنا الحياة أن نمكر بالآخرين وأن من لا يظلم الناس يظلم . ولكننا على الرغم من ذلك ننشد الخير وننبذ الشر : فهذا الشعور لم يستمد من الحياة طبعا ، فمن أين جاءتنا تلك النزعة للخير اذا لم نكن نعلم في أعماقنا أن هذه الحياة الدنيا ليست كل شيء ، بل هي جزء من حياة ثانية خير وأبقى من الأولى ، وأن هذا الطيف الزائل ليس الا مقدمة لبعث جديد ؟

ثم يستطرد (كانت) في هذا المنطق ، حتى يصل الى اثبات وجود الله عز وجل ، لانه اذا كان الشعور بالواجب الذي يمليه الضمير يتضمن الدليل على حياة أخرى خالدة تجزي كل امرئ بما قدمت يداه ، فهذا الخلود ناشئ بالضرورة عن سبب يلائمه ؛ كي تتكافأ العلة والمعلول ، أو بعبارة أخرى لا يمكن أن تتفرع الحياة الخالدة الا عن إله خالد .

هذا هو البناء الشامخ الذي شيده كانت ، ولا يزال قائما في عالم الفلسفة تعمل فيه معاول الهدم فلا تنال منه الا كما تنال الريح الهينة من الجبال الشم الرواسخ . وعلى الرغم من أن كتاب القرن التاسع عشر حاولوا أن ينقضوا رأيه في الاخلاق والدين فقال قائل أن ليس ثمة ضمير يملي الخير . لان الخير ليس مطلقاً فما هو خير اليوم قد يكون شرا غدا ؟ وسخر ناقد من منطق (كانت) في اثبات وجود الله ، فقال انه « كالحاوي » الذي يخرج من قبعته الفارغة ما يشاء ؛ يريد بذلك انه انتزع نتيجة من مقدمات لا تؤدى الى ذلك . أقول على الرغم من ذلك جميعا فلا يسعنا الآن الا أن نطأطئ الهامات اجلالا له واكبارا .

المغنيـة الضريرة

من رسالة إلى صديق

أنت تأخذ على تبرمى بالحياة وانقباضي عما تزخر به القاهرة من شهوات السمع والبصر . ولكن أنسيت أن العين التى يبضها الحزن لا تستطيع أن تجتلى جمالا يرف فى روضة . ولا حسنا يشرق فى طلعة . وأن انفم المريض أزهد ما يكون فى طعام وشراب . أنسيت أن صديقك كان يقطع أيام الشباب فى مثل طلعة الصبح أشراقا وبهجة . ثم أمسى وقد استحال كل أولئك الى ذكريات أليمة تعاوده فى غرفة معزولة تدور به فى مثل حلقة الواو كربا وضيقا : فهو أبدا موصول الحنين متتابع الزفرات . أنسيت آمالى وأحلامى ؟ « أما الآمال فقد عصفت بها النكبات حتى أحالتها إلى هشيم تذروه الرياح » وأما الاحلام فأنت تعرف أنها تكشفت عن رجاء ضائع وشباب هالك وحسرة لذاعة من شماتة الاعداء . ولكن مالى وللحديث فى هذا ولست بسبيل من أن أتحدث اليك فيه اليوم ؟ وإذن فدعنى أحدثك حديث المغنية الضريرة التى سمعتها ليلة الامس فى حفل سعيت إليه فى رفقة من الاصدقاء على الرغم منى ... هى حلوة القسمات بديعة التكوين جميلة كالزهرة تسند فى حدود الخامسة عشرة من عمرها . . أخذت مجلسها على استحياء فيما يشبه أن يكون ذلة وانكساراً وشيئاً من الخجل غير قليل . وصدقنى أن مرد ذلك فيما أعتقد أنها فقدت بصرها وهى طفلة لم تدرج بعد من لفائف مهدها . . وما أحسبك تعتقد أن سلاح المرأة فى هذه الدنيا شيئاً غير سهام العين . وفتنة اللحاظ ترسلها ذابلة مريضة : فاذا بها السيف حدة ومضاء : والشرك المنصوب لا يخطىء الفريسة ولا يعد والغرض . ولكن الاقدار التى قست عليها فجردتها من سلاحها الوحيد كامرأة لم تشأ أن تقسو عليها القسوة كلها فمنحتها صوتا عذبا حنونا يفيض بالأسى وتقطر من جوانبه اللوعة . . . وارتفع صوتها بالغناء حزينا شاكيا يهيج ودائع القلب . ويستدر روافد الدموع .

أتعرف ذلك البلبل الذى هاجمته جيوش الظلام . قصياً عن العش الذى عرف ؛ والدوح الذى ألف . والنبع الذى منه رشف . والجو الذى فى أنحائه غنى وهتف ، أسمعته وهو بين لهفة إلى مهوى الفؤاد تقيمه ؛ ووحشة من رهبة الليل تقعده ؛ يصب ألحانه فى إذن الوجود باكية حزينة تهز أوتار القلب . وتنتزع منه العطف والاشفاق والرثاء ؟ أسمعته يشكو بغير لسان . ويبكى بغير دموع فيبعث لك من الماضى البعيد كل دفين ومستور ؟ إن كنت سمعته على هذه الصورة التى أسلفت لك . وكنت ممن تحيا على أمل عزيز لديك ففقدته — وكنت ممن تذيب حبة قلبك وجدا على حبيب يجزيك على عبادته كفرانا وجحوداً وعلى دمعك المسفوك ووجدك المبرح هوانا ونسيانا . إن كنت كذلك فأنت وحدك الذى يستطيع أن يدرك ذلك الأثر العميق الذى خلفته فى نفسى تلك الفتاة الناشئة بصوتها الساحر الجميل . غناء كأنفاس الفجر ندية لينة . وشدو يصافح الاسماع فى رفق ولين كنجوى العاشقين فى هدأة السحر وقد بسمت لهما الدنيا وهاودتهما الأقدار والسلام ! ! .

عبد الوهاب حسن

بقسم نشر مطبوعات الحكومة بوزارة المالية



ابن خلدون والتفكير المصري

تتمة بحث «ابن خلدون فى مصر»

للاستاذ محمد عبد الله عنان

٤

قضى ابن خلدون فى مصر ثلاثة وعشرين عاما (٧٨٤ — ٨٠٨ هـ) ولكنها كانت بين مراحل حياته أقلها حوادث وأقلها انتاجا .

فاما عن الحوادث فان الحياة السياسية العاصفة التى عاشها ابن خلدون بالمغرب، والتى جاز خلالها معتركا شاسعا من المؤامرات والدسائس الخطرة ؛ وعانى كثيرا من الخطوب والمحن ؛ كما نعم مرارا بمراتب النفوذ والسلطان ، والتى هى فى الواقع صفحة قوية شائقة فى تاريخ المغرب فى أواسط القرن الثامن : هذه الحياة المضطرمة العاصفة ، استبدلها المؤرخ فى مصر بحياة أكثر هدوءا ودعة . وفى مصر يعيش ابن خلدون شخصية عادية لاعلاقة لها بشئون الدولة العليا ؛ بعد ان لبث بالمغرب ربع قرن روح هذه الشئون ؛ يتجرد من ثوب السياسى المغامر ليتشح بثوب العالم المقتدر ؛ وليستوحى نفوذه المحدود من هذه الناحية . على ان المؤرخ لقى فى هذه الفترة حادثين من أهم حوادث حياته ؛ هما فقد اسرته . و لقاؤه للفاتح التترى تيمورلنك .

واما عن الانتاج ؛ فقد رأينا ان المؤرخ حقق أعظم أعمال حياته : أعنى كتابة تاريخه الضخم ومقدمته الرائعة قبل مقدمه الى مصر . ولا نعرف ان ابن خلدون وضع أثناء مقامه بمصر مؤلفا جديداً . غير أن الذى لاريب فيه هو أن وجوده بمصر على مقربة من المكاتيب والمراجع الشاسعة قد أتاح له فرصة التنقيح والتهذيب فى التاريخ والمقدمة ، خصوصا فيما تعلق فيهما بمصر والشرق ، كذا استمر المؤرخ فى كتابة ترجمة حياته أثناء إقامته بمصر ، واستمر فيها الى قبيل وفاته ، وضمنها فصولا جديدة عن خواص دول المماليك المصرية . ونشأة التتار مما أشرنا اليه فى موضعه . وكتب أثناء مقامه بالشام وصفاً لبلاد المغرب ورفعه إلى تيمورلنك كما قدمنا . كذلك لا ريب فى أن ابن خلدون كان يعنى فى دروسه ومجالسه ببث مذاهبه وآرائه الاجتماعية وشرحها .

غير أن ابن خلدون لم يستطع على ما يظهر أن ينشىء له بمصر مدرسة حقيقية ؛ يطبعها بآرائه ومناهجه ؛ وقد كان حريا أن ينشىء مثل هذه المدرسة فى بلد انقطع فيه للبحث والدرس أعواما طويلة . نعم أن التفكير المصرى المعاصر ليس خلواً من تأثير ابن خلدون كما سنرى ؛ ولكن هذا التأثير الذى كان حريا أن يزدهر بمصر وأن ينبث فى مدرستها التاريخية التى كانت يومئذ فى أوج قوتها ؛ كان ضئيلا محدود المدى . ونستطيع أن نرجع ذلك الى الروح الذى استقبل به المؤرخ من المجتمع المصرى المفكر، وهو روح نفور وخصومة ؛ فقد جاء ابن خلدون الى مصر يسبقه حكمه على المصريين فى مقدمته بأنهم قوم «يغلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب» (١) ويورد ابن خلدون هذه الملاحظة فى معرض كلامه عن أثر الهواء فى أخلاق البشر ويعتبره نتيجة لوقوع مصر فى المنطقة الحارة . على أنه مهما اتخذت هذه الملاحظة سمة البحث العلمى فانها لا يمكن أن تقابل ممن قيلت فى حقهم بغير الاستياء والحفيظة . وكان طبيعياً أن يحدث هذا الغرض السىء أثره فى شعور المجتمع المصرى المفكر نحو المؤرخ . وكان هذا المجتمع نفسه يجيش عندئذ بكثير من عوامل الخصومة والمنافسة ؛ وزعامته يطبعها لون من الجفاء والقطيعة . وكان اضطرام المنافسة بين أعلام التفكير والادب يومئذ سواء فى ميدان التفوق والنبوغ أو فى تحصيل ما تسبغه الزعامة الادبية من الجاه والرزق ظاهرة هذه الخصومة . وكان المجتمع القاهرى الادبى ينقسم عندئذ إلى شيع وطوائف تنحاز كل شيعة أو طائفة إلى زعيم أو جناح معين من الزعماء فتؤيد جهوده الادبية وتناجز خصومه فى

(١) ابن خلدون — المقدمة (بولاق) — ص ٧٣

ميدان الجدل . فلم يكن من السهل على أجنبي مثل ابن خلدون جاء ينتظم في سلك هذا المجتمع منافساً في طلب الجاه والرزق أن ينعم بصفاء الافق؛ أويلقى خالص المودة والصداقة : هذا إلى ماكان يغلب على خلاله من حدة وصرامة وكبرياء تزيد من حوله الجفاء والقطيعة .

كان طبيعياً أن تلقى آراء ابن خلدون ودروسه في هذا الافق الـكدر من الاعراض والانتقاص أكثر ما تلقى من الاقبال والتقدير : وأن تكون محدودة الذيوع والأثر . ومع ذلك فقد درس على ابن خلدون جمهرة من أعلام التفكير والادب المصريين وانتفعوا بعلمه ، وظهر أثره جليا في بعض ثمرات التفكير المصرى المعاصر . وممن درس عليه وانتفع بعلمه الحافظ ابن حجر العسقلاني المحدث والمؤرخ الكبير فهو يقول لنا في كتابه « رفع الاصر عن قضاة مصر » إنه « اجتمع بابن خلدون مراراً وسمع من فوائده ومن تصانيفه خصوصاً في التاريخ » وإنه « كان لسنا فصيحاً حسن الترسل وسط النظم مع معرفة تامة بالامور خصوصا متعلقات المملكة » ١ . وإنه كان جيد النقد للشعر وإن لم يكن بارعا فيه . بيد أن ابن حجر يحمل على ابن خلدون بشدة ؛ وينقل في ترجمته كثيراً مما قيل في ذمه وتجريحه . فهو يقول لنا في تاريخه ان ابن خلدون مؤرخ بارع « ولكنه لم يكن مطلعاً على الاخبار على جليتها ولا سيما أخبار المشرق » (٢) ويعارض المقريزى في مدح المقدمة ويرى أنها لا تمتاز بغير « البلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية » وان محاسنها قليلة « غير أن البلاغة تزين بزخرفها حتى يرى حسناً ما ليس بحسن » (٣) وأما ابن خلدون كقاض فان ابن حجر يقول لنا إنه باشر القضاء بعسف وبطريقة لم تألفها مصر . وانه لما ولى المنصب تنكر للناس وفتك في كثير من أعيان الموقعين والشهود ، وانه عزل لاول مرة بسبب ارتكابه التدليس في ورقة (٤) ثم ينقل في هذا الوطن كثيراً مما قيل في ذم المؤرخ وتجريحه . من ذلك » ان أهل المغرب لما بلغهم ولايته للقضاء تعجبوا ونسبوا المصريين إلى قلة المعرفة بحيث قال ابن عرفه (١) « كنا نعد خطة القضاء أعظ المناصب فلما وليهاهذا عددناها بالضد من ذلك » ومن ذلك قول الركراكى أحد الـكتاب الذين عملوا مع ابن خلدون « انه عرى عن العلوم الشرعية » بل ينقل ابن حجر أيضاً بعض المطاعن الشخصية والاخلاقية التي قيلت في حق المؤرخ من ذلك ماقله عن العينتابى وهو أنه كان يتهم بأمور قبيحة (٢) وما نقله عن كتاب القضاة للبشبيشى ؛ وهو « أن ابن خلدون كان في أعوامه الاخيرة يشغف بسماع المطربات ومعاشرة الاحداث وانه تزوج امرأة لها أخ أمرد ينسب للتخليط » وانه كان « يكثر من الازدراء بالناس »وانه حسن العشرة إذا كان معزولا فقط فاذا ولى المنصب غلب» عليهم الجفاء والنزق فلا يعامل بل ينبغى أن لا يرى » وهذه أقوال تنم عن خصومة مضطرمة ومبالغة في الانتقاص تنحدر إلى معترك السباب والقذف . وقد كان البشبيشى (٣) بلا ريب من الخصوم المؤرخ وأشدهم وطأة عليه . وقد دون حملاته على المؤرخ في كتاب ألفه في تاريخ القضاة ولم يصل الينا ، ولـكن ابن حجر ينقل الينا منه تلك الفقرات الشخصية اللاذعة وأخيراً يقول ابن حجر أن ابن خلدون كان يتمسك بزيه المغربى ويأبى أن يرتدى زى القضاة لا لشىء سوى حبه المخالفة في كل شيء (٤)

وموقف الحافظ ابن حجر من ابن خلدون وأثره يدعو الى التأمل؛ فهو على رغم اتزانه واعتداله وعفة قلمه ينساق هنا الى نوع من التجريح والانتقاص ليس مألوفا في كتاباته . ولا ريب ان في لهجته واقواله مبالغة وتحامل ؛ ولـكن لا ريب ايضا ان لها قيمتها في تقدير الراى المصرى المعاصر لابن خلدون ، بل نستطيع ان نعتبرها ممثلة لراى الفريق المفكر الذى كان يخاصم المؤرخ ويشتد في تجريحه ، والحملة عليه ، وقد كان الفريق الاقوى بلا ريب لانه كان يضم كثيراً من المفكرين والفقهاء البارزين مثل ابن حجر ؛ واجمال البشبيشى ؛ والركراكى، وبدر

---

١) رفع الاصر (المخطوط المشار اليه) ورقة ١٦٠ — وتناوله السخاوى في الضوء اللامع

٢) أنباء الغمر في أنباء العمر (مخطوط دار الكتب) ج١ ص ٧١١

٣) رفع الاصر " المخطوط المشار اليه .. ورقة ١٦٠

٤) رفع الاصر — ورقة ١٥٩

١ ابن عرفة من فقهاء الغرب . وكان خصم ابن خلدون

٢ أنباء العمر ١ ص ٧١١

٣ وهو الجمال عبد الله البشبيشى . ولد سنة ٧٦٢هـ بقرية بشبيش من أعمال الغربية . وتوفى سنة ٨٢٠ هـ . وكان من أكابر فقهاء الشافعية ومن أقطاب الادب واللغة . وقد ولى الحسبة بالقاهرة حينا " ترجمته في الضوء اللامع — القسم الثالث المجلد الثانى ص ٥١١ "،

٤ رفع الاصر في مواضع مختلفة من ترجمة ابن خلدون " الورقة ١٥٨ الى الورقة ١٦٠

اسماعيل صبري

بمناسبة مضى عشر سنوات على وفاته

يوم نستقبل الربيع نذكر الخمائل على ضفاف النيل وهي ترسل نسماتها البليلة الندية ، والطير جاثمة فوق غصونها تشدو بأغانيها الجميلة الشجية ؛ ومن خلال أشجارها تجرى جداول تدفقت فيها المياه العذبة الروية . . اليوم الذى تستجيب فيه العين والأذن للزهر وللطير وللماء ، لاننسى أنه اليوم الذى ذوت فيه زهرة أرجة ناضرة ، وانقطع صوت لين حنون ؛ وجف فى مجراه ماء عذب دفيق : ففى مثل هذا اليوم استوفى اسماعيل صبرى ظمء حياته

فهلا يجمل بنا اليوم ، يوم تمضى على وفاته عشر سنوات أن نذكره ولو بهذه الاجمالة الموجزة ؟

لانريد أن نترجم حياة صبرى وإن كانت خطيرة ، فقد تدرج فى وظائف الحكومة حتى شارف ذروتها ، ذلك لأن هذه المناصب الرفيعة ، وإن أحلت صاحبها فى حياته مقاماً محموداً ، أهون على الناس من أن تبعثهم على أن يحفلوا بأمره بعد أن بت ماكان يصلهم به من أسباب الحياة ؛ هذا إلى أن مراد القول أضيق من أن يستفيض لترجمة شاملة وافية تتبين منها ماتركته أطوار حياته من آثار وندوب فى هذا الجانب الروحى الذى يمس النفس الانسانية فيصل بين أجزائها وإن اختلف ما يحفها من عهود وبيئات

استقبل صبرى حياته ، فى أوائل النصف الثانى من القرن الماضى . وقد تجمعت عدة جهود أدبية وقامت فيما يشبه الثورة : فبعثت طائفة من معاجم اللغة وأسفار الأدب ودواوين الشعر من خزائنها وطبعت ؛ وأخذت الصحف الأدبية تنشأ وتعمل لتقويم اللغة وإحياء الأدب العربى ، وأعيدت البعوث إلى أوربا بعد أن وقف إرسالها أيام عباس وسعيد ، وأقيمت نظارة المعارف وعهد اليها بأمور التعليم وأنشئت دار الكتب ومدرسة المعلمين ؛ وظهرت مسارح التمثيل والموسيقى والغناء وغير هذا مما لم يكن إلا ناحية من نواحى الثورة الاجتماعية التى أقامها الخديو اسماعيل يوم رسم لمصر خطة الاتجاه إلى أوربا واقتباس حضارتها الجديدة

فى هذه البيئة التى يدب النشاط فى جنباتها فيبتعث الملكات الهامدة ، بدأ صبرى يقرأ الشعر ويحبه ؛ وأخذ يديم النظر فيه ويحاول ان يقلده ، حتى استقامت له وهو فى السادسة عشرة بضعة قصائد فى مدح الخديو وتهنئته نشرتها له مجلة «روضة المدارس المصرية» التى أنشأها جماعة من صفوة الكتاب البارزين إذ ذاك . وكانت هذه الأشعار مجرد تقليد واضح فى أغراضها ومعانيها وأساليبها لمن سبقه من شعراء عصره كالبارودى وعبد الله فكرى ، وإن ظهرت عليها حيناً مسحة رقيقة من روحه وشخصيته .

ولكن هذه البيئة الأدبية النشيطة لم يقتصر أثرها على توجيه صبرى إلى الأدب وإذكاء ميله إلى الشعر ؛ بل حببت اليه قراءة الشعر العربى القديم من ناحية ؛ وحثته على قراءة الأدب الفرنسى منذ أرسل إلى فرنسا ليدرس الحقوق فى جامعة إكس من ناحية أخرى . فقرأ الشعر العربى وتذوقه وأحب منه بوجه خاص شعر البحترى ؛ ذلك أن صبرى : كما وصفه الدكتور هيكل : (ابن بلد) والبحترى . كما قال حافظ ابراهيم «يأخذ قارىء شعره بالحضن» وقرأ الأدب الفرنسى وصادف فيه جمالا يرضى عاطفته : وسهولة تروى شعوره . وبهذا تأثر شعر صبرى ببعض مميزات الشعر العربى حينا ؛ وببعض مميزات الشعر الفرنسى حينا ؛ وببعض مميزاتهما معاً حيناً . ولكن مامدى هذا التأثير فى أطواره الادبية . وماهى مظاهره فى نتاجه الشعرى ؟ هذا سؤال يتناول ناحية خطيرة فى دراسة الشاعر ؛ وأنا لا أملك الآن مايؤهلنى لبحثها فى دقة وتحقيق . ولكنى أرانى ملزماً بأن أعرض لها ولو فى هذه الصورة التى أعرف أنها ليست دقيقة كل الدقة ؛ وليست شاملة كل الشمول .

الدين العينى (العينتابى) . وقد امتدت آثار هذه الخصومة الادبية طوال القرن التاسع الهجرى حتى جاء السخاوى فى أواخر هذا القرن يردد كل ما ذكره ونقله شيخه ابن حجر فى ذم ابن خلدون وتجريحه والانتقاص من اثره ؛ ولكن فى لهجة مرة لاذعة تنم عن الخبث ؛ وقصد التشهير والهدم أكثر مما تنم عن قصد النقد الصحيح وهذه الروح المرة اللاذعة تبدو فى معجمه (الضوء اللامع) فى معظم تراجم الشخصيات البارزة . بيد أنه يعترف فى كتاب آخر له «بنفاسة» مقدمة ابن خلدون ويبدو أكثر اعتدالا وتقديرا (١)

للبحث بقية

١) كتاب الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ـ (مصر) ص ١٥١

حين نقرأ هذه الاشعار القليلة التى خلفها صبرى نرى أنفسنا أمام طائفتين متمايزتين من الشعر، تشتركان فى صفاء الديباجة ورواء الاسلوب بوجه عام، وتختلفان فى الشعور الذى صدرتا عنه، وفى العاطفة التى أوحت بهما، وفى المعانى التى تدوران عليها. وقد يضعف هذا الاختلاف حيناً وقد يشتد حيناً آخر اشتداداً يحملنا على أن نزعم أننا لانقرأ شاعراً واحداً وإنما نقرأ شاعرين مختلفين. وليس فى هذا مايدهشنا، فصبرى قد عاش مايقارب سبعين عاما: مرت عليه أثناءها عهود الشباب والرجولة والكهولة، حاملة آراءها وأفكارها، وخواطرها وخلجاتها: وآلامها ولذاتها، وتنقلت حياته أثناءها بين هذه الآراء المتضاربة التى يمتلىء بها العقل تبعاً لما يتغذى به من ألوان الثقافة المختلفة، وبين هذه الاحساسات المتباينة التى يجيش بها القلب تبعاً لما يعرض له من مناسبات وملابسات.

فأما الطائفة الاولى من شعره فهى التى أنشأها بين العشرين والاربعين وأكثرها قصائد فى مدح أو تهنئة اسماعيل وتوفيق وعباس، وفى هذه الاشعار نرى أثر الشعر العربى ظاهراً واضحاً، ونرى أثر البحترى وحده، على وجه الدقة، عميقاً بارزا، إلى حد يبيح لك أن تشرك شعريهما فى مميزات واحدة. خذ مثلا قصيدته فى تهنئة الخديو بحلول شهر رمضان ومطلعها:

بملاك يختال الزمان تبختراً * وبقدرك الأسمى يتيه تكبراً

وقارنها بكثير من مدائح البحترى تجد أن صبرى قد تأثر فيها بالبحترى تأثراً هو أشد من تقليد شاعر لشاعر، وهو أقرب إلى حلول روح شاعر فى جسم شاعر آخر. ولكن، وعلى رغم هذا كله: فان هذا الأثر تناول الديباجة وحدها فأكسبها جزالة وسهولة فى مفرداتها وتراكيبها، من غير أن يمتد إلى المعانى فينتج منها شيئا جديداً قيما، وذلك لأن البحترى، وهو الوشيجة التى تصل صبرى بالادب العربى: قل أن نظفر فى شعره بكثير من المعانى المبتكرة: وقل أن نحس فيه غير متانة الأسلوب وسلاسته. تأثر فى هذا الطور الادبى: بين العشرين والاربعين بالشعر العربى وحده، فأين كان الشعر الفرنسى؟ أليس من الشذوذ أن نرى صبرى قد ذهب إلى فرنسا قبل أن يبلغ العشرين من عمره: وبدأ إذ ذاك يقرأ الآداب الفرنسية ويتذوقها ويشدوها ثم لانكاد نظفر فى شعره اثناء هذا العهد بأثر قوى لهذا الشعر الفرنسى بل ولا لأى مظهر من مظاهر الحياة الاوربية؟ ولكن يظهر أن صبرى قد أوتى: إلى جانب حواسه المرهفة، ذاكرة قوية مكنته من أن يختزن فيها مايعرض له حتى يتمثله فى تؤدة وأناة وحتى ينتجه مكتمل النمو مستوفى النضوج.

ونحن لانفترض هذه الموهبة ولانتكلف التماسها، وانما يحملنا على الاطمئنان اليها أننا نجد فيها تعليلا لهذا الاضطراب الذى يغشى أطوار حياته الادبية. فقد قضى صبرى شبابه وشعره يكاد يقتصر على المدح وما إلى المدح مما تنفر منه نفس الشباب: ولاتكاد تبين فيه أثارة من هذه العواطف التى يحفل بها الصدر فى ربيع الحياة: بينما تفتحت شاعريته الجائشة وأخذ يتغنى بأناشيد الحب والهوى اثناء الكهولة التى تنطفىء فيها عواطف الشباب الفياضة. ذلك لان ذاكرته القوية قد استطاعت أن تحتفظ بهذه الاحساسات الفتية التى اختلفت عليها أثناء شبيبته: حتى تفجرت بعد ذلك شعراً نيراً لاتنبو به فجاجة الحس ولاغضاضة العاطفة.

ولهذا ظهر أثر الشعر الفرنسى فى هذه الاشعار التى تغنى فيها بالعاطفة الانسانية التى يسمونها الحب أو العطف أو الوداد وناجى فيها الله وتخوف وتشوف الى الممات، وشاد بمجد وطنه واستنهض أبناءه الى استعادة الماضى المجيد. فى هذه القصائد والمقطوعات: التى كتبت اسمه فى ثبت الخالدين، ظهر أثر الشعر الفرنسى بارزاً شاملا: بارزاً حتى يكاد يخفى وراءه كل أثر للشعر العربى، شاملا فلا يقتصر على الديباجة وحدها، ولا على المعانى وحدها: وانما ينال الأسلوب فيضفى عليه جمالا ورواء، ويتعداه الى الفكرة فيمزجها بروح غربية لم يألفها الشعر العربى من قبل.

وهل ترى فى الشعر العربى مثالا لهذه القطع التى أنشدها فى الحب؟ كلا! فالشاعر العربى الغزل لايرى فى المرأه إلا (أنثى) جميلة الوجه دقيقة القسمات، مهفهفة القوام رشيقة الأعطاف، رخيمة الصوت شيقة الحديث، يهصر صدرها ضما ويشبع ثغرها تقبيلا، وهى تتهافت وجداً وتتهالك هياما! والغزل فى الشعر العربى يضيق عن أن يستفيض لجميع وجوه الجمال الانسانى: وينصب على ناحية الجمال الجسمى وحده، فيصفه جملة أو تفصيلا: سواء كان الغزل عذريا أو إباحياً أو متكلفاً. أما شعر صبرى فى الحب فيختلف عن هذا الغزل العربى فى صلته بالمرأة: إذ يتسامى عن الجمال المادى إلى الجمال المعنوى فى أرحب آفاقه وأشمل معانيه. فلا تستخفنا فيه هذه العيون والخدود، والصدور والنهود: والملاسة والرشاقة، والتقبيل والضم. والتأود والتثنى، والتأوه والأنين وانما نهتف فيه بالمثل الأعلى للمرأة فى أفتن جمالها، وأذكى فؤادها، وأنبل روحها.

وإني لأشعر حين أقرأ قصيدته (تمثال جمال) أني أنظر إلى صورة فنية رائعة، فلا أميز بين هذه المرأة التي يهتف بها الشاعر، وبين هذه المرأة التي يتخذها المصور رمزاً لمعنى من المعاني الانسانية كالألم أو الأمل أو الحنان! بل انى لأحس حين أرتلها أن قلبي قد صفا مما به من شره وأنانية وغرور وكبرياء؛ وأن صدرى قد انطفأت فيه جذوات الحقد والحسد والغيرة والطماح؛ وأن فؤادى قد غمر الخشوع والايمان مايغشاه من شك وضلال: أشعر أني قد سموت من الارض إلى السماء!

ولم لا وصبرى قد امتزجت فيه الروحية بالجمال؟ ألم ينشأ على ضفاف هذا النيل الذى أوحى إلى الانسانية أن تتكر ديناً وإيماناً؛ ألم يلابس الحياة الاوربية وما تضفيه من فتنة وجمال؟ وبهذا ا. تجاب للروحية المصرية وتمثل الجمال الاوربى: وبهذا اجتمعت فيه مصر بروحيتها وأوربا بجمالها: وبهذا كان نتاجه الشعرى مزاجاً من الروحية فى معانيه ومن الجمال فى أساليبه.

وشعره فى الحب، بعد هذا، سمح وديع رضى: لايفطر القلب أسى؛ ولا يرسل من العين دمعاً؛ ولا يبعث من الصدر أنيناً؛ ولكنه لا يشيع فى المرء غبطة بالحياة ورغبة فى متاعها ولا يغرى بالاسراف والتوفر على لذاتها: وإنما يجمع فى شعره لوعة غير مسرفة؛ ومتعة غير غالية. ذلك لأن صبرى لم يكن لاهياً ولا عابثاً ولم يكن كئيباً ولا محزوناً؛ وإنما كان سمح الذوق. وديع الخلق؛ رضى النفس، فما كان يذعن قلبه لامرأة واحدة تأسره وتطغى عليه. وما كان ماجناً فى حبه سادراً. ولا متهتكا فى هوه مستهتراً، وانما كان ينشد المرأة التى تشبع القلب ولا تتخمه، وتروى الفؤاد ولا تغرقه؛ وترضى الشعور ولا تقسو عليه.

وهذه الدعة التى تميز بها فى حبه، تشيع كذلك فى شعره فى مناجاة الله؛ وازدراء الدنيا: واستشفاف ما فى الحياة الأخرى. فهو لم يكن ناسكا فى الدنيا زاهداً فى لذاتها، ولم يكن مفتوناً بالحياة متوفرا على متاعها: وإنما كان ينال من هذا فى قصد ويأخذ من ذلك فى اعتدال؛ فاذا اسرف فى حبه للحياة واستمتاعه بلذاتها الرخيصة: ذكر الدنيا وما فيها من نكر وخداع وضلال: وذكر ما بعدها من حساب وعقاب وثواب، فاستعجل الموت وراحة القبر حيناً: وناجى الله وأمل فيه حينا.

ولكن صبرى الوادع الهادىء كان إذا تحدث عن وطنه جاشت الحماسة فى أنحاء صدره؛ وفاضت الحرارة فى سياق شعره، فمثلت الوطن بجلاله وروعته، وأشعرت المصرى بمجده وكرامته، وأذكت نار الوطنية فى فؤاده: وألهبت فيه عاطفة التضحية فى سبيل بلاده

وهو فى شعره يستلهم العاطفة ويستوحيها. كانت تختلف عليه غير السياسة وأحداثها فلا يحفل بها؛ وتتوالى أمامه الكوارث والخطوب فلا يأبه لها؛ وتتراكب فى عينيه شؤون الحياة وأمورها، وتزدحم بخيراتها وشرورها، وتغص بلذاتها ومنغصاتها، فلا تسترعى منه حاسة ولا تستثير فى نفسه عاطفة: بينما يجيش وجدانه وتهتز عواطفه عند موت طفل، أو فراق صديق: أو قراءة كتاب؛ أو وقفة عند سفح الأهرام؟ هذه الحوادث التى تمر بنا فلا نلتفت إليها كانت تثير شاعرية صبرى بهذه المقطوعات التى تمس النفس الانسانية فى أعمق حواسها وأدق مشاعرها. وهذه هى مهمة الفن: يفتح العين المغمضة، ويذكى الحاسة المطفأة: ويبعث العاطفة الهامدة؛ ويحيى موات القلوب؛ حتى يشركنا بحظ مما فاتنا من اللذات السامية التى قصرت على النفوس الموهوبة. وهل نرى بهجة الحياة إلا بعين المصور، وهل نستمع إلى أنغامها إلا بأذن الموسيقى؛ وهل نحس الحق والجمال إلا بقلب الشاعر؟ وأى شعر أرفع من شعر صبرى الذى (فاضت به) العاطفة من غير أن تتكلفه أو تكره عليه؟ وأى شعر أنضج من شعر صبرى الذى كان يؤمن بشيطانه ولا يعصى له أمراً: فيستوحيه الشعر ولا يستجديه؟ وأى شعر أسمى من شعر صبرى الذى تشيع فيه هذه المرارة وهذا الحنين: فيذيب فى الصدر أطماع الحياة وآثامها: ويسمو بالنفس عن متعها الخسيسة الهينة؛ إلى المستوى الانسانى حيث يستحيل البغض حباً: والقسوة حناناً: والأثرة إيثارا، والتناحر وداداً، والصراع عناقا...

إلى جانب هذا النضوج فى روح صبرى: نذوق جمالا فى أسلوبه يملك على المرء نفسه حين يتلوه؛ ويحمله على أن يرتله مرة بعد مرة وعلى أن يذكره آونة بعد آونة. فلا يزداد الشعر إلا عذوبة وصفاء تزيد المرء لذة ومتاعاً: ويخيل إلى المرء أنه أمام وجه جميل؛ كلما أطال النظر اليه، ازداد رغبة فيه وحباً له. وهكذا يقاس نضوج الفن: يزداد المرء بالصورة اعجابا كلما أنعم النظر فيها، ويزداد حنيناً الى الموسيقى كلما أطال الاستماع اليها؛ ويزداد فتنة بالشعر كلما أكثر ترديده وترتيله. وكيف لا يكون شعر صبرى جميلا وقد استقاه من ينابيع فياضة بالجمال: تأثر بشعر البحترى الذى امتزجت فيه الجزالة بالسهولة: وتأثر بالشعر

من طرائف الشعر

شوقيــــة لم تنشر

نظمها شاعر الخلود شوقى بك فغنتها احدى القيان ولم تنشر

بى مثل ما بك يا قمرية الوادى
ناديت ليلى ؛ فقومى فى الدجى نادى

وأرسلى الشجو أسجاعا مفصلة
أو رددى من وراء الأيك إنشادى

لا تكتمى الوجد ؛ فالجرحان من شجن
ولا الصبابة ، فالدمعان من واد

تذكرى ! هل تلاقينا على ظمأ ؟
وكيف بل الصدى ذو الغلة الصادى

وأنت فى مجلس الريحان لاهية
ما سرت من سامر إلا إلى نادى

تذكرى قبلة فى الشعر حائرة
أضلها فمشت فى فرقك الهادى

وقبلة فوق خد ناعم عطر
أبهى من الورد فى ظل الندى الغادى

الفرنسى الذى يفيض سيولة ورواء . ويتجاوب الحاناً وأنغاماً ؛ وهو قبل هذا قد أوتى أذناً دقيقة تجيد انتقاء المفردات ؛ وتحسن الاستماع الى اتساق العبارات . (وتحس نبو الوتر) . وصبرى كان مولعاً بالموسيقى ؛ مفتوناً بالغناء . وكان متصلا بمن عاصروه من الموسيقيين والمغنيين . وامدهم بكثير من المقطوعات الغنائية الشعبية ، ومن اجملها (قدك ياامير الاغصان) (الفجر لاح بإنجار النوم) . وكانت تستخفه عذوبة الحديث وبلاغة الالقاء ولهذا كان كثير التبديل والنقد لشعره ؛ وكان يبذل فى صياغته جهداً ناصباً ؛ حتى اذا استقام له البيت اوالبيتان اوالاربعة اهملها ثم نسيها ، فلم يبق لنا من شعره الا القليل .

هذه سوانح تخطر لى عندما اتلو شعر صبرى الذى لم تتطرق اليه البداوة العربية التى تغشى غيره من شعرائنا ؛ اكتبها لنذكر صبرى (أستاذ الشعراء) الذى صبغ الشعر العربى الحديث بطابع نلمس آثاره فى شوقى وحافظ .

عبد الحميد عبد الغنى

تذكرى منظر الوادى ومجلسنا
على الغدير كعصفورين فى الوادى

والغصن يحنو علينا رقة وجوى
والماء فى قدمينا رائح غاد

تذكرى نغمات ههنا وهنا
من لحن شادية فى الدوح أو شادى

تذكرى موعداً جاد الزمان به
هل طرت شوقاً ؟ وهل سابقت ميعادى ؟

فنلت ما نلت من سؤل ومن أمل
ورحت لم أحص أفراحى وأعيادى

طائرى الهاجر

فى قفار الفلاة كان مسيرى والشمس ترسل نارا
لفحات كأنها من سعير زادت اوارى أوارا

ليس فيها سوى رمال كثيب من فوقهن رمال
لاغدير ولا جناب رطيب تحنو عليه الظلال

متعبا يائسا أويت لكهف مالت عليه الصخور
وترامیت بين جهد وخوف تضيق منه الصدور

غير انى أبصرت طيرا جميلا ماراعه أن رآنى
لونه كالسماء ، أحلى هديلا من مطربات الأغانى

قلت يا طير : ان قلبى وجيع فغننى واشف قلبى
أنا فى هذا القفار مضيع فكن عزائى وطبى

فدنا عند ذاك منى وغنى والسحر فى نغماته
وأتى فوق راحتى مطمئنا يفتر عن بسماته

وغدا طائرى أنيس حياتى فى وحشة الصحراء
وألفت البقاء وسط فلاتى حتى نسيت شقائى

فكأن الرمال أضحت غياضا تجرى بها الانهار
وكأن الصخور صارت رياضا تزينها الأزهار

غيرانى . أواه ! أبصرت يوما طيرى على غير عهدى
فتوددت فى خشوع فأوما على عبوس وصد

وتوسلت ضارعا بودادى وما تضمن قلبى
وجرى الدمع من دماء فؤادى ولست أعرف ذنبى

ثم ناديت حسب نفسي شقاء وما ترى من بكائي
انني لا أعيش الا رجاء فلا تضيع رجائي

فلوى رأسه الجميل مجيبا في قسوة وجفاء
قال : ما تبتغي ؟ كفانا نحيبا أف لهذا البكاء !

أنا طير ولي جناح فدعني أطير نحو السماء
والتمس صاحبا شبيهك ، اني سئمت طول البقاء

قال هذا وطار عني يغني بين ثنايا السحاب
تاركا مهجتي لنيران حزني تلقى صنوف العذاب

م. ف

علالة المجنون

« قطعة تمثل مجنون ليلى في احدى خلواته ، وهو يرفع الى عشيقته عفوه عن الحب ويشرح ماله من يد وفضل على المحبين ، وهو الذي ذهب بعقله وأورده موارد التلف ، ويسر في أذن الليل صبابته واخلاصه لفاتنة قلبه ومالكة لبه »
(الناظم)

عفا الله يا ليلاى عن ذلك الحب
وجدد ما قاسيت في البعد والقرب
ولا زادني إلا عذابا ومحنة
أقانيها حتى أغيب في الترب
صبرت على عيشي زمانا والهوى
جراح ،ولم يجرؤ لساني على العتب
وغالب غيري حبه متبرما
وغالبته نشوان مختبل اللب
ولولا الهوى لم يعمر البيد خاطري
ولا طار في أجواء مأنوسة قلبي
ولولا الهوى لم يحل من وجنة جنى
ولا شرع الهيمان في السلسل العذب
ولولا الهوى لم يسفح البين أدمعا
تسيل على الخدين كاللؤلؤ الرطب
ولم تسلك الالحاظ في النفس مسلكا
كما خامر الرعديد طيف من الرعب
ولولاه أصبحت الشقي بوحدتي
وان ضافني قومي وعللني صحبي
به أبصرت عيني ولم أك مبصراً
وهبت رياحي وانجلت غمرة الكرب
وزفت لي الدنيا كفردوس آدم
وطالعني الريحان في المهمه الصب

* * *

اليك أبث الحب يا ليل فاستمع
لأنت إذا نامت عيون الورى حسبي
عشقت ومالت بالفؤاد صبابة
ومن حسنات الكون يالليل ما يصبي
يقولون ما أغناك عمن تحبه !
إذا هو أصلاني الغرام فما ذنبي ؟
ولولا شعاع بين عينيه راعني
وشرد عقلي ما اهتديت الى الحب
كذبت هوى ليلاى إن لم أمت به
وأقفني على تذكار قاتلتي نحبي
أأجزيه من دمعي ؟ لقد نفد البكى
فهات لأجفاني دموعا من السحب
أأكتمه والسقم واش ، وحيرتي
ولبي ، وأنفاسي تحدث عن صب ؟
حنانك يا ليلى ألم تحملي الهوى ؟
ألم تعلمي يا منية النفس ما خطبي ؟

(سوريه) حمص « رفيق فاخوري »

ليلة !

ليلة الأنس تقضت في شراب ومجون
لم يشاهدها الندامى في مقاصير الأمين
طلع الفجر وكنا من هوانا ثملين
ضمني صدر وفي كله عطف ولين
وفم يعبق طيبا كعبيق المورلين (١)
لذة العمر لديها كل شيء قد يهون
لا ترم مني شرحا أنا للسر أمين
كرمة ابن هانىء حسين شوقي

(١) نوع من الشبانبا



من الادب التركى

الزامر الأعمى

للدكتور عبد الوهاب عزام

جلست إلى دواوين الشعر التركى أقلب الأجيال بين يدى: أطالع مرة وجه «نجاتى» و «ذاتى» وأنظر أخرى الى «باقى» و «نفعى» وثالثة أرى «نديما» «وراغب باشا» و «الشيخ غالب» ثم أعمد الى العصور الاخيرة فاذا اسناسى و «نامق كمال» و «ضيا باشا» و «توفيق فكرت» و «عبد الحق حامد» وغير هؤلاء.

وبينا أطوى العصور باللمحات، وأقلب الاجيال تقليب الصفحات، بصرت «بالصفحات» ديوان الشاعر الكبير صديقى الكريم محمد بك عاكف. فسارعت الى الجزء الاول فانفتح عن قطعة عنوانها «الزامر الاعمى» فقرأتها ثم عمدت الى القلم فترجمتها نثراً إذ ضاق الوقت دون نظمها وأنا أقدمها للقراء كما جاءت عفو البديهة فى الاختيار والترجمة :

الزامر الأعمى

كنت أرى هذا السائل الضرير، يتأبط ذراع قائده؛ وفى يده قصبة عتيقة؛ ينبعث منها صوت قوى، كأنه النواح فى المأتم. ويمر به الناس فيقفون ويستمعون رحمة به ورثاء له. ثم يلقى كل منهم الى كشكوله البائس الذليل خمس بارات أو عشراً.

كان يبعث أناته فى قصبته المرضوضة فينبعث الى أذنه فى رنين العشرات والخمسات صدى البشرى، ورسالة المودة؛ رنات لاتفنى فى أنين الناى، الحزين ولكنها تؤلف نغمة أخرى تسايره. كم أحزننى هذا الصوت! وكم أمضنى ذلك المرأى الأليم!

انه من دهره فى ليال متتابعة مديدة؛ لايتنفس فى آفاقها المظلمة صبح؛ ولا يلوح فى وجهه لمحة من النور: تحدث عن بسمات الرجاء والامل. كلا. ان هذا لوجه الاغبر. هذا الوجه التعس قد أنتمت فوقه سحب متراكمة من الشقاء: ماضيه ظلام، وظلام مستقبله. سله عن الحياة فهى حقيقة مظلمة مديدة. تراءها نظراته حجابا من الظلمات دون حجاب. انه لايبصر المصائب؛ ولكن كل شىء حوله مصيبة؛ يمتد به العمر الشقى فى هذا العالم البائس، ويتحسس ظلامه الذى لاينتهى فلايظفر بطريق تخرجه الى صبح الامل المسفر.

وعلى كتفيه مزق من عباءة بالية قد اتخذها مجنا فى عراك الايام؛ ولكن يد الريح العابثة تنازعه هذا الستر كلما هبت؛ فتكشف عن كتفيه؛ وتلقى بصدره أمواج المطر والبرد.

***

بينا أخرج السوق بصرت بسائل يبعث أنينا حزينا؛ وهو متكىء على أحجار تغشاها أوحال. وتحته حصير أبلاه مر الأيام ولايظله الا طنف «سبيل» هناك. ولكن صوت الناى لاينطلق الآن بعيداً؛ وانما سمعت عن كثب صدى كنيس المحتضر.

ليت شعرى أكان يزمر لنفسه أم كان يئن؟ لا أحد يسمع له! ولا أحد يقف عنده! ولكن المارة يلقون اليه بنظراتهم ثم تمضى بهم السبل. ومن ذا الذى يصيخ الى صدى تلفظه المقابر؟ أيها المسكين! وطن على الموت نفسك! واقطع أنات الشكوى. لا لا. أصخ! قد سمع فى الكشكول رنينا مديدا! ياللها نغمة من الرجاء مطربة! ياللها بشرى إستمع لها القلب والأذن معاً.

الماء يخترق الطنف؛ فينسكب المطر من ثقوبه فيضرب الكشكول البائس! سمع الأعمى الصوت فحسبه نبض الرحمة قد جاشت به قلوب المارة. فمد يده. مدها الى الكشكول، ولكن هيهات! قد خاب رجاؤه؛ وكذب ظنه، ارتدت يده المتجمدة من البرد! ارتدت اليه فارغة مبتلة!



في الأدب الغربي

عنزة المسيو سيغان

La Chevre de M. Seguin

لالفونس دوديه

إلى الشاعر الملهم بيير غرينفوار — بباريس

ستظل طول حياتك على حالك التي عهدتها ياصديقي البائس! كيف تعرض عليك وظيفة مخبر لاحدى كبريات الجرائد في باريس ثم ترفض! تأمل في حالك أيها المسكين! أنظر إلى ثوبك الممزق وإلى حذائك البالي، وإلى وجهك الضعيف الشاحب، أذلك ما أجداه عليك غرامك بالشعر. وهذا جزاء خدماتك الجلى «لابولو» مدة عشر سنوات ... ألا تخجل من نفسك بعد هذه النتيجة؟

إقبل هذه الوظيفة أيها الغبي! اعمل مخبرا! ستكسب الدنانير الجميلة فتستطيع بها أن تأكل في المطعم أكلا شهياً وأن تلبس في أول الشهر معطفاً جديداً ...

ألا تريد أن تقبل؟ أترفضها إذن؟ تريد أن تبقى حراً إلى الأبد ... اصغ إذاً إلى قصة عنزة المسيو سيغان لتعلم مايجنيه المرء من الاخلاد إلى حياة الحرية!

* * *

لم يلاق المسيو سيغان حظاً في اقتنائه المعز. فقد خسر أعنزه كلها بطريقة واحدة: كانت تقطع حبلها في الصباح لتهرب إلى الجبل حيث يفترسها الذئب. فلا وداعة سيغان ورفقه، ولا اسم الذئب وبطشه، كانت تثنيها عن خطتها. فكانت، على ما يظهر، معزى مستقلة بنفسها، لا ترضى بغير الهواء الطلق مربطا ولا بغير الحرية مرتعاً.

ولكن سيغان لم يكن يفهم طبعها ولا يعرف شيئاً من خلقها ليخفف قليلا من حدته وذعره. فكان يقول:

— انتهى الأمر! انني لن أقتني بعد اليوم عنزة واحدة لأنها تمل عشرتي.

ولكنه على رغم ذلك لم ييأس اليأس كله. فبعد ان خسر ست عنزات بالطريقة المعلومة اشترى السابعة. ولكنه في هذه المرة عني باختيارها صغيرة ليأمن بقاءها عنده

آه! يا صديقي غرينفوار ما كان أجمل عنزة سيغان هذه المرة! عينان ناعستان ولحية صغيرة كلحية الضابط، وحافر أسود لماع، وقرنان مفوفان، وصوف طويل أبيض يتدلى على جسمها! إنها أحلى وألطف من جدي اسميرالدا الذي رأيناه يطوف به الشوارع بالأمس، أتذكره ياصديقي؟ انها كانت هادئة، وديعة، سهلة الانقياد ...

وكان سيغان يربط ماعزه في حظيرة محاطة بالعليق خلف منزله. فربط فيها العنزة الجديدة؛ وأطال لها الحبل لترعى ما جاورها من الاعشاب النضرة، وأخذ يطل عليها من وقت إلى آخر ليتعرف حالها. ولشد ما كان سروره عظيما عندما رآها سعيدة، منكبة على مرعاها الخصيب. تأكل منه مالذ لها وطاب. فقال سيغان في نفسه:

— الحمد لله! لقد وفقت أخيراً الى عنزة لا تمل عشرتي.

ولكن السيد سيغان كان مخطئاً، فان العنزة أدركها السأم والملال!

***

نظرت عنزة صاحبنا إلى الجبل ذات يوم، فقالت في نفسها:

— لا شك أن الحياة هنيئة حلوة في هذا الجبل ما أسعدني عندما أمرح بين أعشابه من غير هذا الحبل اللعين الذي يحز رقبتي! ... لا بأس إذا رعى الحمير أو البقر في مثل هذا المكان الضيق! ... أما نحن معشر المعزى فلنا الخلاء الفسيح.

ومنذ ذلك الحين أصبحت لا ترى لعشب الحظيرة طعماً. وأخذ الملل يستولي عليها. فهزلت؛ وشح حليبها، وأصبحت لا ترى طيلة النهار إلا ممددة على الأرض، شاخصة إلى الجبل وهي تثغي بصوتها المحزن

ولاحظ المسيو سيغان ان العنزة أصابها شيء، ولكنه لم

يعلم ماهو . . . . ففى ذات صباح بينما كان يحلبها التفتت اليه وخاطبته بلهجتها القومية :

— اصغ الى يامسيو سيغان ، انى أكاد أموت هنا ، فدعنى أذهب الى الجبل .

فصاح مسيو سيغان فزعاً :

— آه ! ربى ! . .

وترك الوعاء من يده ، ثم جلس الى جنبها على العشب وقال :

— عجباً ! وأنت أيضاً تريدين مفارقتى يابلانكيت ؟ فأجابته :

— نعم يامسيو سيغان .

— أتنقصك الأعشاب هنا ؟

— لا يامسيو سيغان .

— ربما كان رباطك قصيراً : أتريدين أن أطيله لك ؟

— لا ، أرح نفسك من هذا العناء يامسيو سيغان .

— اذاً مابك ، ماذا تريدين ؟

— أريد أن أذهب إلى الجبل يامسيو سيغان .

— ولكن ، ألا تعلمين أيها المسكينة ان الذئب هناك . . . وماذا تصنعين عند مايهاجمك ؟ . .

— أضربه بقرنى يامسيو سيغان .

— ولكن الذئب لايبالى بهما . فقد أكل لى معزى كان قرناها أطول من قرنيك . انك تعرفين رينود التى كانت عندى فى العام الماضى ؟ فقد كانت قوية نشيطة ؟ ظلت الليل على طوله فى عراك مستمر مع الذئب... وفى الصباح تغلب عليها وأكلها .

— مسكينة ! مسكينة ! . . . . ولكن لابأس ، دعنى اذهب الى الجبل يامسيو سيغان .

— سبحانك ربى ! . . . هذه أيضاً واحدة ستكون للذئب طعاماً . . . لا ، لا . . . سأمنعك رغماً عنك ! وسأقفل عليك باب الحظيرة حتى اذا قطعت الحبل لاتجدين لك مهربا .

حينئذ قاد المسيو سيغان عنزته الى حجرة مظلمة فى الحظيرة وأغلق دونها الباب . ولكنه نسى أن يغلق النافذة ، فما كاد يخرج حتى وثبت العنزة اليها وفرت منها هاربة . . .

أنتك تهقه ياصديقى غرينفوار وترى رأى الماعز . . . . ولكن ستعلم بعد حين اذا كان ضحكك يدوم طويلا .

ولما وصلت العنزة البيضاء الى الجبل . اغتبط بها وأكبر حسن طلعتها ؛ ذلك لأن أشجاره القديمة لم تر فيما مضى عنزة جميلة كهذه العنزة ، وانحنت الاغصان المورقة نحوها لتحظى بلمس ثوبها الفتان ، وتفتحت الازهار وارسلت فى الهواء كل ماتحمل من عبير وعطر احتفالا بملكة الجبل الجديدة .

تأمل ياصديقى غرينفوار ما كان أشد سرور بلانكيت ! لاحبل ، ولا وتد . . . ولا شىء يعوقها عن القفز والجرى ، والرعى كما تشتهى . . . هنا وجدت العشب كثيراً ناميا ! وفى هذا المكان أحست بطعمه ! . أى عشب لذيذ ، طرى ، مطرز الاطراف ، كثير الانواع . انها لم تجد مثيلا له فى الحظيرة الضيقة . والازهار الجميلة على اختلاف ألوانها ! انها أخاذة ساحرة .

هنا احست بالشبع ، فأخذت تلهو وتمرح ، تروح وتغدو ، تثب فى الهواء وتجرى على الارض ، تقفز من فوق السيول فتبلل صوفها بالماء ، ثم تتمدد على صخرة فى الشمس لتجففه ، حتى أعادت للجبل سالف حياته ، وبعثت فيه نشوة الفرح والحبور ! وكان يخيل للناظر ان فى الجبل عشر عنزات للمسيو سيغان لاعنزة واحدة .

وبيناهى على قمة الجبل ممسكة بين اسنانها زهرة جميلة أبصرت فى الوادى منزل المسيو سيغان والحظيرة التى بقربه ، فقهقهت ضاحكة وقالت :

— ما أصغر هذا المسكن ! كيف صبرت على بقائى فيه ؟ ورأت نفسها على قمة عالية فحسبت انها أصبحت تملك الكون بأسره . . .

والخلاصة ياصديقى ان يومها كان سعيدا جداً .

ومما هو جدير بالذكر ان بلانكيت التقت فى طريقها عند الظهر بقطيع من الوعل يقضم باسنانه أشجار الكرم . فأحبت أن تشاركه فى طعامه ففسحوا لها المجال بأدب . ويظهر أن هناك وعلا وقع من قلب العنزة موقعاً حسنا ـ وأرجو أن تبقى هذا الكلام سراً بينى وبينك ـ فاختفت وإياه فى الغاب مدة ساعة أوساعتين . فاذا أردت أن تقف على حقيقة ماجرى بينهما فاذهب وسل عيون الماء المتفجرة ، المنسابة بين الاعشاب المخضوضرة .

***

وفجأة برد الطقس ، وأخذ الليل يرخى سدوله على الجبل . فقالت العنزة :

— عجباً ! كيف يمضى النهار بسرعة ؟

وكان السهل قد اختفى عن ناظريها فى الظلام ، ولم تعد ترى من منزل المسيو سيغان إلا سقفه الاحمر وقليلا من الدخان المتصاعد منه . ولما اخذت تصغى الى صوت قطيع من الغنم

عائد الى حظيرته أحست فى أعماق نفسها بوخز الضمير فتألمت .
ومر إذ ذاك طائر ليبيت فى وكره فكاد يلمسها بطرف جناحه .
فى هذه اللحظة سمعت فى سفح الجبل صوتا يدعوها اليه — وكان ذلك صوت المسيو سيغان ينبعث من بوقه — فتذكرت الذئب وأخذت تفكر فيه بعد ان انساها فرح النهار وجوده .

ثم سمعت صوت الذئب يتجاوب صداه فى الارجاء، فوطدت العزم على النجاة من مخالبه باجابة المسيو سيغان . ولكنها تذكرت الحبل والوتد فشق عليها ان تعود الى سالف حياتها وفضلت البقاء .

وفى هذه الاثناء انقطع صوت البوق ...

وسمعت العنزة خلفها حفيف الاوراق : فالتفتت لتنظر فرأت اذنين صغيرتين ترتفعان وعينين تقذفان بالشرر .. فعرفت انه الذئب ...

***

ربض الذئب الكبير ينظر الى العنزة نظرة نهم، ويتأملها دون ان يعجل الى افتراسها . ولما همت بالمضى فى سبيلها أخذ يضحك ويسخر، ثم مد لسانه الأحمر الغليظ .

هنا احست بلانكيت بخطر الموت . . وتذكرت حكاية العنزة رينود التى قاومت الذئب طيلة الليل عبثاً ؛ فالقت عصا الطاعة وصممت على أن تلقى الذئب صاغرة ليأكلها سريعاً .

ولكنها فى اللحظة الاخيرة رجعت عن رأيها هذا ، ووقفت للدفاع عن نفسها . فاحنت رأسها وأشهرت قرنيها ؛ لا لتقتل الذئب وهى تعرف ان المعزى لاتقدر عليه بل لتجرب إذا كانت اقوى باساً من رفيقتها رينود . . .

آه ! ياصديقى ما كان اشجع هذه العنزة الصغيرة ! انها اضطرت الذئب اكثر من عشر مرات الى إن يستريح فترة من الزمن كانت فى خلالها تقضم العشب بسرعة لتعود إلى القتال مموءة الفم ...

وظلت الحال على هذا المنوال . الصراع مستمر يقطعه تقهقر وقتى من الذئب ، والعنزة تنظر الى النجوم الرجراجة وهى تأمل دوام القتال حتى مطلع الفجر — الى ان اخذت النجوم تهوى واحدة بعد الاخرى .. وامتد فى الافق الشرقى شعاع باهت .. وارسل الديك صيحته من احدى المزارع المجاورة . فقالت العنزة المسكينة التى انتظرت انفجر لتستسلم للذئب :

— ها قد وصلت الى بغيتى أخيراً !

ثم تمددت على الارض وصوفها الابيض مخضب بدمها . . .

عند ذلك هجم الذئب عليها واكلها .

***

وداعا يا صديقى !

ان القصة التى رويتها لك واقعية لا أثر فيها للخيال . ويمكنك اذا جئت الى هذه الضاحية يوما أن تطلب من أحد أهليها أن يقص عليك حكاية عنزة المسيو سيغان التى قضت الليل بطوله فى عراك مستمر مع الذئب . . . وفى الصباح تغلب عليها وافترسها .

أسامع أنت يا غرينغوار !

... وفى الصباح تغلب عليها وافترسها .

بيروت — محمد كزما



حديث قملة عجوز

للدكتور احمد زكى

الاستاذ بكلية العلوم

لا يلذلكم معشر البشر أن نتحدث اليكم نحن معشر القمل : لاننا فى أعينكم شارة الاقذار وظل الأوساخ ؛ وتلك قذيفة لا تقوم على حجة ولا يدعمها برهان ، فنحن لا نتغذى الا من دمائكم ؛ ولا نرتوى الا من ثغور ننقبها فى جلودكم ، وسواء لدينا الجسم القذر والجسم النظيف ؛ وربما كان الجسم النظيف أحب الينا ، لأن مثاقب القوت تكون عندئذ أقرب إلينا ولكن صاحب الجسم النظيف لا يعطينا المهلة للحياة فهو يغير ملابسه المرة تعقبها المرة ؛ فيحول بذلك بيننا وبين موارد أرزاقنا فنموت جوعا فى يومين وقد نحيى إلى سبع ، لأننا فى طيات هذه الملابس نتخذ منازلنا ولا نخرج عنها إلى الجسم إلا طلباً للقوت ، فاذا أصبناه عكفنا راجعين اليها .

وقلتم أن القمل سبب لأمراض قاتلة كالتيفوس ، والحق أننا لا نخلق المرض ولا نبتدع الشر فأصول هذه الأوبئة فيكم وعنكم نأخذها فى الدم الذى نستقيه منكم ؛ وبالرغم من حبنا لمساقط رؤوسنا وأ لفتنا للجسم الذى نشأنا عليه وترعرعنا ، تضل منا أحياناً أفراد فتنتقل غير واعية من رجل مريض إلى رجل سليم لا سيما فى الزحمة حيث تتلاقى المناكب وتتلاصق الثياب ؛ فاذا هى وردت منهله العذب لوثته بما حملت من المنهل الأكدر ، فترون من هذا أننا لا نخلق السوء وإنما نسوى بينكم فى الاسواء

وأسميتمونا المتطفلة لاننا لا نستطيع هضم كل طعام كما تستطيعون ، وليس لنا جهاز هاضم راق كالذى به تهضمون ، فأنتم تهضمون لنا الغذاء : فنمتصه منكم مهضوما فى الدماء ، وليت شعرى أى سبة فى هذا أوعار أفلستم تتطفلون على الشاة والبقر وصنوف الطير والنبات الحى فتزدردونها كلها ازدراداً ، أفترون الشعرة فى أعين الناس ولا ترون الخشبة فى عيونكم ؛ على أنه مقدار حقير ذلك الذى نمتصه فى الوجبة الواحدة ولسنا نطعم غير وجبتين فى اليوم ، ولنا فى الطعام ذوق الأعزة الكرام ، فنحن نعاف دم المريض ونتقزز من أجسام الموتى فنفارقها مع الحياة .

واحتقرتمونا لصغر أجسامنا وكبر أجسامكم فان فاتنا الجرم الكبير فقد أصبنا العدد الكثير ؛ فالأنثى منا لا تبلغ اليوم الثامن بعد افراخها حتى تلد ثم تلد ثم تلد ، وهى لا تلد واحدا أو اثنين فى العام كما تلدون وإنما تبيض فى المرعى الخصيب عشرا كل يوم ، فان عاشت الأنثى أربعة أسابيع فقد تبيض مائتين من الصئبان (١) ، وان امتدبها العمر الى أرذله فعاشت ستة أسابيع فقد تبيض ثلاثمائة بيضة ، والبيضة من بيضاتها تلبث السبعة الايام أو الثمانية ثم تفرخ ، فانظر الى العدد الكبير من الخلف الصالح الذى تخلفه الانثى منا قبل مفارقتها هذه الحياة الفانية . أنا بالطبع انثى شيخة أكاد استكمل الثلاثين ربيعا ، وماربائعنا الا أياما ، نسلت من الابناء والاحفاد ما نسلت ، ولكنى انسل ولا أتعهد نسلى ، وكل ما أفعله ان أتخير لهم الموضع الامين ، فأنا أبيضهم على كل شعار خشن ألقاه ، وأبيضهم على فتائل الملابس ولاسيما حيث يخاط اللفاق باللفاق ، ليكون لهم معتمدعليها وفى دروءها ستر من عصف الزمان وأبيضهم على الاشعرة دون الادثرة حتى اذا أفرخوا كانوا من طعامهم قاب خطوات من خطواتنا ، ومن الدفء اللازم لافراخهم على بعد قامة من قاماتنا ، فنحن مثلكم حاجتنا للدفء لا تقل عن حاجتنا للطعام ، وأوفق الحرارة التى نبيض فيها هى مادون حرارتكم بدرجتين ، والدرجات التى تعلو على الستين تهلك بيضنا ، والدرجات الواطئة تعطل افراخه ؛ فاذا هبطت الى مادون ال ٢٢ درجة امتنع افراخه بتاتا .

وسواء ارتفعت الحرارة أو انخفضت فبيضنا لا صبر له على البعد عن أجسامكم طويلا ، فان رمى به الحظ العاثر الى ملابس

(١) هى المسماة بالعامية «صبان» وهو بيض القمل

خلعتموها فانه يصابر شهرا وبعض شهر رجاء أن تعودوا فتلبسوها ويعود هو الى أفراخه ، فان لم تفعلوا فالويل لذرارينا فانهم يهلكون يا كبدى ولم ينمموا بخطوة واحدة على جلدكم الوطىء ولم يستمتعوا بقطرة من شرابكم المرىء

وللفرد منكم معشر البشر عمر طويل موفور ؛ وللفرد منا معشر القمل عمر قصير منقوص ؛ الا أن حظنا من الزمن مجموعين مثل حظكم ونصيبنا من قديمه وحديثه مثل نصيبكم : نطاولكم فى القدم ونكاثركم فيما طويناه جميعا من مراحل الازل ؛ فان كانت نطفتكم قديمة فلعل بيضنا أقدم ؛ وسنسايركم ان شاء الله على حذاء فى مجاهل الابد : فما دام فيكم الجهل والفقر بقدر كائنا ما كان فرفقتنا لن تنفصم عراها باذن الله ، فالجهل والفقر لابد دائما فيكم دوام الانانية والفردية بعون ربنا وربكم تقدست أسماؤه

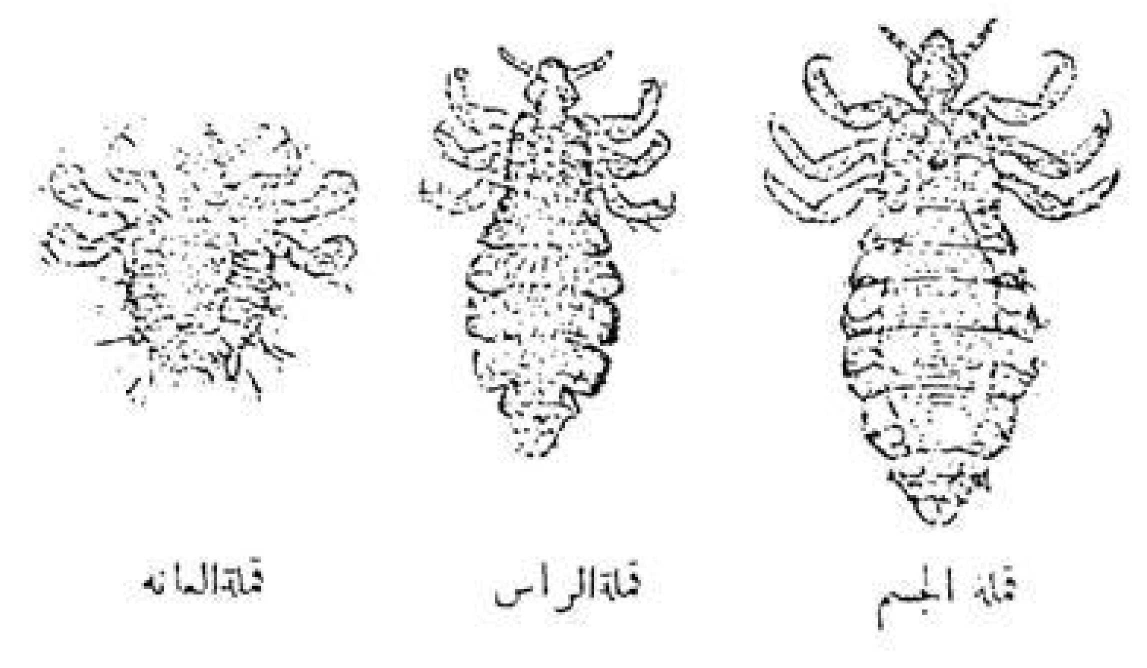
نعم ربنا وربكم ؛ فان لنا مكانا فى الخليقة مثل مكانكم ؛ فما الخليقة إلا قبائل وبطون وافخاذ جمعها أصل واحد ؛ وفرقت بينها اجواء مختلفة وبيئات متباينة وحظوظ من العيش متفاوتة ؛ فنحن وكثير من احياء البحار كالاربيان Lobster وأبى جلنبو والجنبرى قبيل واحد ؛ ولكنهم اختاروا الماء واخترنا الأرض فكان منا النحل والصرصور والجراد والبق وعدد عديد من الاجناس يبلغ المليونين لم يتعرف علماؤكم منه غير مائتين وخمسين ألف . فقبيلنا نحن ابناء الحشر فى قبائل الاحياء اكبر قبيل ، وانقسمنا بعد ذلك بطونا ، وانقسمت البطون أفخاذا حتى بلغ التقسيم الينا نحن عشائر القمل ، ومنا عشائر تعيش على الطير تقرض ريشه : ومنا عشائر تعيش على الحيوان كالكلب والانسان تمتص دمه : وتستوطن اجسامكم يا سادة الحيوان ثلاثة أجناس منا : جنس يستمرىء جذوعكم واطرافكم : وهو اكبر الأجناس وأنا المتحدثة اليكم منه ، وجنس يحب المسكن الاعلى والمرقب الاسنى فاختار رؤوسكم ، وجنس استأثر بمواضع العفة منكم . نحن الثلاثة الاجناس نعيش فى كنفكم ووفير كرمكم : نستجدى أجسامكم وهى لا تعرف المنع ، ونستحلب دماءكم وعادتها العطاء ، فتشكل خلقنا وفقا لهذا العيش اللين والنعمة الميسورة ؛ ففقدنا أجنحتنا لما فقدنا الحاجة الى التنقل ؛ واشتدت ارجلنا وقصرت لتمسك بشعوركم وتلصق اشد التصاق بجلودكم وبفتائل ثيابكم ومن ذا الذى لا يستمسك بالمرعى الخصيب والرزق القريب ؛ واستحالت افواهنا فصارت قادرة على الثقب والمص ؛ ولنا قناة هضمية ودورة دموية وجهاز للتنفس وجهاز عصبى ؛ كلها بقدر بساطة حاجاتنا ؛ ولنا عينان كبيرتان فى مقدم رأسنا : وإلى جانبيهما قرنان نستهدى بهما ؛ ويلى الرأس صدر يحمل من الارجل ثلاثة ازواج باطرافها مخالب كالابر إلا انها تعرف كيف ترفق فى السير عليكم ؛ ويلى الصدر منا بطن كبير هو كل ما بقى منا . وعلى هذا المثال يتقسم الحشر جميعه ؛ وتتراءى بظاهرنا تقاطيع حلقية كأنما ضم خاتم الى خاتم الى خاتم ، ولا غرابة فى هذا فبين قبيلنا وقبيل الديدان وشائج وأرحام .

وتفننتم يا اهل المروءة والحنان فى طرق ابادتنا . كنتم تبيدوننا بالماء الساخن والصابون ففطنتم الى ان كثيرا منا يفلتون بأرواحهم والى انكم ان أعدمتم بذلك البالغين منا فقد فاتكم ان تعدموا الصئبان ؛ فخلطتم الصابون بالجاز وبئسما فعلتم ؛ فالجاز من اسم السموم لنا ؛ نموت نحن وبيضنا اذا غمسنا دقيقة فيها ولا نستطيع مقاومة بخاره غير ثلاثين دقيقة . وهدا كم سوء طالعنا الى مواد اسم وافعل من الجاز نموت على الفور نحن وبيضنا ان تبللنا بها ونعدم بعد ٥ دقائق فى استنشاق أبخرتها ، ولكن يعزينا أنها ليست فى متناول كل أحد منكم لندرتها ؛ ولغلائها .

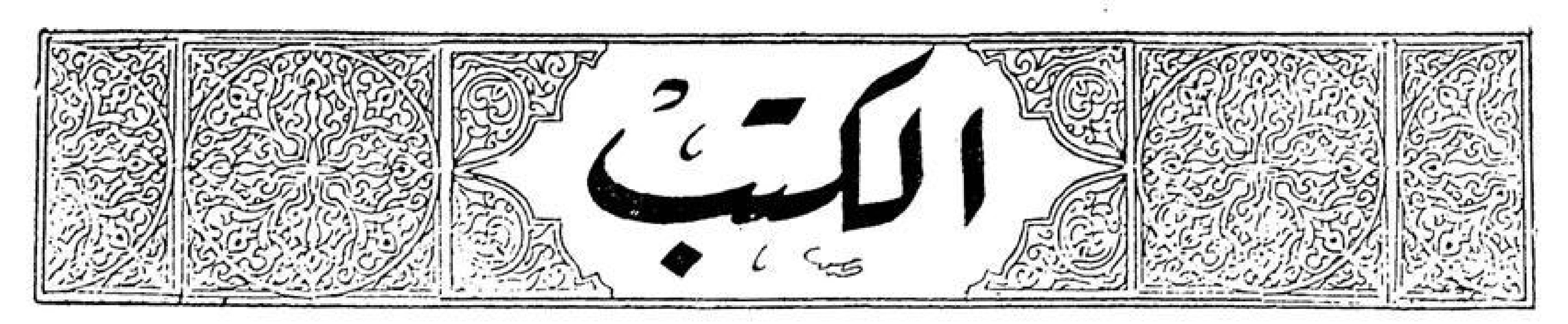
على أنه لا ملامة عليكم ولا تثريب فى ذلك ؛ فكلنا طالب العيش والحياة ؛ فأنتم تسعون للبقاء ونحن نسعى للبقاء ؛ والحرب بيننا سجال ، والحرب بين أجناس الخلائق سجال كذلك : جنس يقاتل جنسا ثانيا فيقتل منه ، وجنس ثان يقاتل جنسا ثالثا فيقتل منه ، وجنس ثالث يقاتل الجنس الأول فيقتل منه ؛ فهى حروب فى دوائر ؛ وكل مادار فى دائرة فلا انتهاء له ولا انقضاء ، وسبحان راسم الدوائر ذى الخلود والبقاء

---

٥ من المستحضرات كثيرة النفع التى استخدمت فى جيوش الحرب الكبرى مستحضر يصنع بتسخين ثلاثة أرطال من الصابون السبل الارغاء ربع لتر من الماء وبعد ازاحته من على النار يخلط بخمسة أرطال ونصف من الجاز ثم يضاف الى الحاصل ٢ ونصف فى المائة من وزنه من الكريسول وعندئذ يستحم به كالصابون . أما المواد شديدة الفعل المشار اليها فمركبات كلورية من مشتقات عضوية كالمثان والايثان وتستخدم مراهم .



قملة الجسم قملة الراس قملة العانة



في النقـــــد

للدكتور طه حسين

سلمى وقريتها : كتبته باللغة الفرنسية « مدام أبي خير »

أهل الكهف : كتبه باللغة العربية « توفيق الحكيم »

ليختصم أنصار الجديد وأنصار القديم ؛ ما وسعتهم الخصومة وما وجدوا من أنفسهم قوة على احتمال أثقالها ، والمضى فيما تحتاج اليه من الجهاد . فان الزمن يمضى فى سبيله رغم خصامهم وصلحهم . وهو لا يمضى وحده ولكنه يدفع أمامه قوما منا ، ويجر وراءه قوما آخرين . وهو منته بأولئك وهؤلاء الى حيث يريد هو من التغير والتطور والتجديد ، لا الى حيث يريدون هم من الوقوف والجمود والاسراف فى المحافظة على القديم كل القديم . .

ولقد خطر لى هذا بعد أن فرغت من قراءة ما ينشره أصدقاؤنا فى (الرسالة) حول التجديد وأنصاره ، وحول المحافظة وأصحابها . وقد فرغت أيضاً من قراءة طائفة من هذه الكتب الكثيرة التى أظهرتها الشهور الاخيرة ، والتى تجتمع أمامى وتزداد من يوم الى يوم ، وتلح على فى أن أفرغ لها وأجلس اليها وأنظر فيها ، فأنصرف بها عما يحيط بى من ظروف الحياة التى أعمل فيها كل يوم .

ثم فكرت فى هذا ، وقد فرغت من قراءة بعض هذه الكتب ، فاذا نحن نختصم فى الجديد والقديم ، ونسرف فى الخصومة ، ونغلو فى التفسير والتأويل ، على حين يدفعنا الزمان فى طريق التجديد دفعا لا سبيل الى مقاومته ، أو يجرنا فى هذه السبيل جراً لا سبيل الى الافلات من قوته . ولكنى وقفت عند ظاهرة لعلها تستحق أن يقف عندها النقاد والمفكرون ، وهى هذا الشكل العقلى الفنى الذى تأخذه الصلة بين الشرق والغرب فى هذه الايام ، فقد كنا منذ حين نتأثر بالغرب ونسعى اليه ونقتبس منه ونريد أن ننقله الينا ان صح هذا التعبير . وكان هذا السعى يفنى شخصيتنا أو يكاد يفنيها ، فاذا نحن غربيون فى تفكيرنا وتعبيرنا وحياة عقولنا وقلوبنا . وإذا حظوظنا تختلف من هذه الغربية قوة وضعفا . منا من يحسن التقليد ، ومنا من يسيئه . وكان ضعف شخصيتنا هذا يبغضنا الى المحافظين من أهل الشرق ويزهدهم فينا . وكان يثير فى نفوس المجددين من أهل الغرب حبا لنا يشوبه العطف والاشفاق ، وكنا نضيق ببغض أولئك وحب هؤلاء ، ونتمنى لو نقف من أولئك وهؤلاء موقفا طبيعيا لا حرج فيه ولا تكلف ولا ضيق .

كذلك كانت حال كتابنا وشعرائنا فى هذا العصر الحديث حين كانوا يريدون التجديد أو يذهبون اليه . ولكن الامر تغير فى هذه الايام فقويت شخصية الكتاب والشعراء حتى آمنت بنفسها وآمن بها الناس من حولها فى الشرق والغرب جميعا ، وأصبح كتابنا وشعراؤنا ينشئون النثر ويقرضون الشعر فلا يزور عنهم كثير من المثقفين حقا فى الشرق ، ولا يرفق بهم أهل الغرب ، وانما يحبهم أولئك فيقرأونهم ويخلصون لهم النصح والنقد والتشجيع ، ويقدرهم هؤلاء فيدرسونهم ويقيسون الآماد التى قطعوها فى سبيل التجديد والاتصال بالحضارة الغربية والتمكين لهذه الحضارة فى بلاد الشرق دون أن تفنى شخصياتهم أو يصيبها الضعف والفتور .

وأغرب من هذا الذى تراه حين تقرأ ما يكتبه (جيب) و (كنمير) وغيرهما عن كتابنا وشعرائنا ، انك تلاحظ فى هذه الايام ، ان من أهل الشرق من يتمثلون الغرب حتى كأنهم من أهله فيتحدثون اليه بلغته ويفكرون كما يفكر ، ويشعرون

كما يشعر ، ويشاركونه بهذا فى انتاجه الادبى الخالص ، ويصدرون كتبهم حيث يصدر الغرب نفسه كتبه فى لندرة أو باريس . وإذا هذه الكتب تصل الينا من عواصم الغرب فنتلقاها كما كنا نتلقى الكتب الغربية من قبل ، وتتناولها صحفنا بما تتناول به كتب الغرب من نقد وتقريظ ، وترى بعض أهل الشرق يتمثلون الغرب ويسيغونه ويهضمونه ان صح هذا التعبير ، ويذيبونه فى أنفسهم ، ويغلبون شخصيتهم عليه ويغذون قوميتهم به . ثم يتحدثون الينا بلغتنا مهذبة ، ويفكرون معنا بطرائق تفكيرنا مصفاة ، قد أضيفت الى ثروتها ثروة أخرى فأخصبت وآتت ثمراً نحبه ونستعذبه ونستزيد منه فنلح فى الاستزادة .

وكذلك يتصل الشرق بالغرب اتصالا عقليا وفنيا بعد أن كان الاتصال بينهما ماديا تقليديا ، وكذلك تتقدم فى التجديد خطوات واسعة قيمة مغنية حقا ، فنضيف الى ثروة الغرب كما يضيف الغرب الى ثروتنا .

وأنا أريد أن أتحدث اليك الآن عن كتابين يمثلان هذه الحال التى وصفتها من الاتصال المتكافىء الكريم بين الشرق والغرب . فأما أحد هذين الكتابين فقصة كتبت بالفرنسية . وأما الآخر فقصة كتبت بالعربية ، أول الكتابين قصص خالص ، والآخر قصص تمثيلى ، أول الكتابين لسيدة لبنانية هى السيدة أمى خير ، والثانى لكاتب مصرى هو الاستاذ توفيق الحكيم .

أما كتاب مدام خير فهو : (سلمى وقريتها) ، سمعنا عنه منذ اكثر من عام وتحدثت الينا صاحبته ، بخلاصته وقرأت علينا بعض فصوله فى محاضرة ألقتها مدام خير منذ عام فى قاعة من قاعات الكونتيننتال حيث يجتمع أصدقاء الثقافة الفرنسية فى يوم الجمعة من كل أسبوع أثناء الشتاء . وكنا قد أحببنا ماسمعنا من هذا الكتاب ومن الحديث عنه ، ومنينا أنفسنا ساعات لذيذة نقضيها معه بعد أن يتم طبعه ويعود الينا من باريس فى ثوبه الفرنسى الجديد . ولكنى شديد الاحتياط ، أسىء الظن بنفسى ورأيى ولا أطمئن الى هذه الاحكام العجلى : ولست أخفى انى أسأت الظن بما احسست من رضى عن هذا الكتاب فى العام الماضى ، وأشفقت ان يكون مصدر هذا الرضى براعة مدام خير فى المحاضرة وحظها من حسن الالقاء ، وقدرت ان الخير ان انتظر حتى يصل الى الكتاب فأقرأه بعيداً من صاحبته ومن صوتها العذب وحديثها الجميل .

ووصل الى هذا الكتاب منذ اسابيع ، فخلوت اليه ساعات ولست اخفى انى رضيت عنه رضى كثيرا وأعجبت بفصول منه إعجابا عظيما ، ووقفت عند فصول أخرى وقفة من يشعر بشىء من الرضى لا اسراف فيه .

موضوع الكتاب ظاهر من عنوانه ، فهو قصة فتاة لبنانية وتصوير للقرية التى عاشت وماتت فيها . والمؤلفة تنبئنا بأن كتابها صورة فتوغرافية لسلمى وقريتها . وقد يكون هذا حقاً بل هو حق . وهو فى الوقت نفسه مصدر فضل الكتاب ومصدر شىء مما يلاحظ عليه . وكم كنت أود لو أن هذا الكتاب لم يكن صورة فتوغرافية ، بل كان صورة فحسب ، صورة من عمل الانسان لا من عمل الآلة الفتوغرافية ، صورة تظهر فيها شخصية الكاتبة ظهوراً واضحاً نأنس اليه ونستعين به على اساغة هذه الحقائق التى يشتمل عليها الكتاب . ولكن القصة كانت كما أرادت مدام خير صورة فتوغرافية ، فامتازت بالصدق وامتازت بالدقة ، وفقدت شيئاً كثيراً من الحياة والتأثير .

ليست القصة غريبة ولا طريفة ، وانما هى شىء مألوف نكاد نقرؤه فى كل كتاب — استغفر الله — نكاد نقرؤه فى كتب كثيرة ألفت فى القرن الماضى ، ونكاد نجده فى كل كتاب من كتب الأدب العربى حين يتحدث عن العشاق الذين يضنيهم الحب حتى يسلمهم إلى الموت . فقد أحبت سلمى فتى من قرية مجاورة لقريتها فى شمال لبنان . مرض أبوها وقامت أمها على تمريضه وانفردت هى بالذهاب الى المزرعة فلقيت فيها هذا الفتى الغنى الموسر المثقف بعض الشىء . فمال الفتى اليها ومالت هى اليه ثم تحدثا ثم عرف كل منهما أمر صاحبه . ثم ملأ الحب قلب الفتاة وملك عليها نفسها ، ثم برىء الأب من مرضه وانقطع لقاء المحبين فكانا يختلسان ساعات يلتقيان فيها . ثم ظهر الأب على بعض الأمر . فضرب الفتاة وذهب يعاتب الفتى ويعرض عليه الزواج . فاعتذر وأرسله عمه الى مصر يلتمس فيها الثروة ويبدد فيها حبه على ضفاف النيل ، وأصاب الفتاة حزن عميق كان الأمل يخففه حيناً ويضاعفه أحيانا . ثم كان اليأس . وزوجت الفتاة من شاب كان يكلف بها . فحاولت أن تخلص له وجدت فى ذلك ولكنها لم تستطع أن تخلص من حبها القديم

فيضعف قلبها وجسمها عن الوفاء بحبها الأول والاخلاص لحب زوجها فيأخذها مرض . مايزال بها حتى ينقذها من هذه الحياة

فأنت ترى أن ليس فى القصة شىء غريب مبتكر ، ولكن جمال القصة مع ذلك شىء لا سبيل إلى الشك فيه . ومصدره فيما يظهر هذا التصوير الفوتوغرافى الذى ينقل اليك قرية من قرى لبنان . وما فيها من حياة نحب سذاجتها ، ووداعتها . وجمالها الطبيعى الذى لم يفسده التكلف ؛ ولم يشوهه الاغراق فى الحضارة . والذى يمتزج فيه الايمان الخالص الحر بالحياة الخالصة الحرة . نعم ونحب فى هذه الحياة التى يملؤها النشاط المنتج فى فصل العمل؛ وتملأها الراحة الهادئة فى فصل السكون؛ ولعلنا نحب أيضا هذا النوع من العشق الذى ينبعث من اعماق الانسانى فى غير تكلف ولا ترف ولا تأثر بفلسفة العقل وتهالكه على البحث والتحليل والاستقصاء . ثم نحن نحب بعد هذا كله وفوق هذا كله هذه الصور الفوتوغرافية لطبيعة لبنان فى أشكالها المختلفة . لهذه الجبال الشاهقة يكسوها الجليد إذا كان الشتاء؛ ويزينها الربيع بالشجر المخضر . ولهذه الوديان التى يجاهدها الانسان جهاداً عنيفاً ليستخرج منها القوت الذى يستعين به على الحياة ؛ وحب اللبنانيين القوى الصادق الساذج لطبيعتهم وجبالهم وأوديتهم ، حتى انهم ليفتتنون بها فتنة تجعلهم جميعاً شعراء .

والغريب من أمر هذه القصة انها ليست صادقة فى تصوير موضوعها وحده ، بل هى صادقة فى تصوير ناحية من نواحى الكاتبة نفسها؛ أريد بها ناحية المهارة الفنية، ففى أولها شىء من الضعف والبطء واستقصاء اللغة ؛ كأن الكاتبة تجاهد نفسها بعض الشىء؛ حتى اذا مضت فى القصة مرحلة أو مرحلتين أصبح قلمها طيعاً وألقت اليها اللغة الفرنسية أعنتها واستقادها الاسلوب الفرنسى فانطلقت حرة سمحة كأنها قد أتمت التمرين . لهذا كان آخر الكتاب خيراً من أوله . ولهذا كان من حقنا أن نثق بأن الكتاب الذى ستصدره مدام خير سيكون خيراً من الكتاب الذى أصدرته . واذا لم يكن بد من أن الاحظ بعض العيب فقد آسف لأن شيئاً من التهاون فى اللغة لم يبرأ منه الكتاب فقد استعملت ألفاظ عامية مبتذلة لا ينبغى أن توجد فى كتاب أدبى إلا أن تدعو اليها النكتة . ولعل من أوضح الأمثلة لذلك ما يوجد فى صفحة ٧٢ و ١٤٠ . وجملة القول أننا مدينون لمدام خير بساعات لذيذة قيمة قضيناها مع هذا الكتاب الممتع ولكن املنا اكثر جدا من رضانا . فلنشكر لها جهدها الاول ولنهنئها به ، ولننتظر من جهودها المقبلة خيراً كثيراً .

* * *

أما قصة (أهل الكهف) فحادث ذو خطر ، لا اقول فى الادب العربى العصرى وحده . بل اقول فى الادب العربى كله . وأقول هذا فى غير تحفظ ولا احتياط . واقول هذا مغتبطا به مبتهجا له . وأى محب للأدب العربى لايغتبط ولايبتهج حين يستطيع أن يقول وهو واثق بما يقول انه ا جديدا قد نشأ فيه وأضيف اليه؛ وان بابا جديدا قد فتح للكتاب وأصبحوا قادرين على أن يلجوه وينتهوا منه الى آماد بعيدة رفيعة ما كنا نقدر أنهم يستطيعون أن يفكروا فيها الآن :

نعم هذه القصة حادث ذو خطر يؤرخ فى الأدب العربى عصراً جديداً . ولست أزعم أنها قد حققت كل ما أريد للقصة التمثيلية فى أدبنا العربى؛ ولست أزعم أنها قد برئت من كل عيب، بل سيكون لى مع الاستاذ توفيق الحكيم حساب لعله لا يخلو من بعض العسر . ولكنى على ذلك لا أتردد فى أن أقول إنها أول قصة وضعت فى الأدب العربى ، ويمكن أن تسمى قصة تمثيلية حقاً ، ويمكن أن يقال إنها أغنت الادب العربى وأضافت اليه ثروة لم تكن له . ويمكن ان يقال إنها قد رفعت من شأن الادب العربى وأتاحت له أن يثبت للآداب الاجنبية الحديثة والقديمة . ويمكن أن يقال إن الذين يعنون بالادب العربى من الاجانب سيقرأونها فى اعجاب خالص لاعطف فيه ولا اشفاق ولا رحمة لطفولتنا الناشئة . بل يمكن أن يقال إن الذين يحبون الادب الخالص من نقاد أجانب يستطيعون أن يقرأوها ان ترجمت لهم : فسيجدون فيها لذة قوية وسيجدون فيها متاعاً خصباً ، وسيثنون عليها ثناء عذبا كهذا الذى يخصون به القصص التمثيلية البارعة التى ينشئها كبار الكتاب الاوربيين .

أهذه القصة مصرية ؟ أهذه القصة أوروبية ؟ . . ليست مصرية خالصة ولا أوربية خالصة ، ولكنها مزاج معتدل من الروح المصرى العذب والروح الاوروبى القوى . وقد يكون من العسير على غير الفنيين أن يفرقوا بين هذين الروحين اللذين تأتلف منهما القصة .

ولكن الذين لهم مشاركة قوية فى الأدب العربى والاجنبى يستطيعون ان يتميزوا هذين الروحين حين يجدون فى القصة سهولة النفس وعذوبتها ؛ وحين يشعرون بهذا العبث الخفيف الذى يضطرهم إلى الوقوف من حين إلى حين وهم يقرأون ؛ وحين يجدون الفاظاً وجملا تصور النفس المصرية الآن كما صورتها فى أزمان مختلفة منذ كان للمصريين أدب عربى ؛ ثم حين يجدون هذا التفكير العميق الخصب الدقيق الذى يلح فى التعمق ويغلو فى الدقة ، ويأبى أن يترك حقيقة من الحقائق عرضة للشك أو هدفا للغموض ؛ إلا أن يكون الكاتب قد تعمد ذلك وأراده وأبى أن يرسل نفسه فيه على سجيتها مراعاة لبعض الظروف .

كل هذا يمكن النقاد من أن يتبينوا فى هذه القصة روحاً مصرياً ظريفاً وروحا أوربياً قوياً . ولنقف وقفة قصيرة عند موضوع القصة وشكلها .

فأما موضوع القصة فلم يخترعه الكاتب وانما استكشفه ؛ وفرق ظاهر بين الاختراع فى الادب والاستكشاف . ولعل الاستكشاف أن يكون أصعب فى كثير من الاحيان من الاختراع ؛ وهو فى قصتنا هذه صعب عسير . موضوع القصة موجود فى القرآن الكريم ، وهو قبل أن يوجد فى القرآن كان معروفاً فى القصص المسيحية التى لها حظ من التقديس . ويكفى أن تعلم أنه حديث أهل الكهف الذين أشفقوا من اضطهاد ملك رومى للمسيحيين ففروا بدينهم من هذا الملك الظالم وأووا إلى الكهف فناموا فيه ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا . ثم بعثهم الله عز وجل فانكروا الناس وأنكرهم الناس فعادوا الى كهفهم وفيه قبضهم الله اليه

وأنت تعلم ان هذه القصة قد قصها الله فى القرآن فى آيات كريمة هي اعذب واسمى ما نعرف من آيات البيان العربى ؛ وانت تعلم ان من العسير ان تستغل مثل هذه القصة فى أدبنا العربى الذى لم يتعود فى العصر الحديث أن يستغل الكتب الدينية استغلالا فنيا كما تعود الاوربيون أن يلتمسوا فى الكتب المقدسة موضوعات للقصص والشعر والتمثيل والنحت والنقش والتصوير والموسيقى . فاذا استطاع الاستاذ توفيق الحكيم ان يلتمس موضوع قصته فى القرآن أوفى قصة فصلها القرآن وان ينشىء فى هذا الموضوع أثراً فنياً بديعاً كان خليقاً ان يهنأ بشجاعته وبراعته معا

فموضوع القصة اذن شرقى عرفته أحاديث المسيحيين وفصله القرآن الكريم . ولم يعرفه الاوربيون الا من هذه الطريق ، ومؤلفنا إذن كغيره من المؤلفين الاوربيين الذين يلتمسون الموضوعات لقصصهم التمثيلية أحيانا فى التوراة والانجيل . ولكن مؤلفنا كغيره أيضا من المؤلفين الاوربيين لم يحك حكاية ما عرفته احاديث المسيحيين وما جاء فى القرآن ، وانما بعث فى أهل الكهف حياة أخرى فيها قوة وفيها خصب وفيها فلسفة تمكنها من الاتصال بالحياة الانسانية العامة على اختلاف العصور والبيئات من انحاء غير الناحية التى عنى بها القرآن وعنيت بها الاحاديث المسيحية . وهو يدخل فى هذه الحياة عناصر جديدة لم تدخلها القصة القديمة أهمها عنصران : عنصر الفلسفة ، وعنصر الحب . فالفرق عظيم جداً بين هؤلاء الاشخاص كما يصورهم القرآن وكما تصورهم أحاديث المسيحية الشرقية فى سذاجة لاحد لها ووداعة لا حد لها وإيمان لا حد له ولا غبار عليه ، وبين هؤلاء الاشخاص كما يصورهم الاستاذ توفيق الحكيم وقد تعقدت حياتهم فتعقدت عقولهم أيضا . ففقد اثنان منهم هذه السذاجة ، المطلقة والوداعة المطلقة والايمان المطلق ولم يحتفظ بهذه الخصال منهم الا شخص واحد ، هو يمليخا الراعى ، وبهذا النحو من التصوير الجديد لهؤلاء الاشخاص استطاع الكاتب أن يجعلهم أبطال قصة تمثيلية حديثة . ولوقد احتفظ الكاتب لهم بخصالهم الأولى لما استطاع أن يتجاوز بهم ابطال قصص الأسرار التى كانت تمثل فى القرون الوسطى أمام الكنائس . فالكاتب مستكشف لقصته فى ظاهر الامر ولكنه مخترع لها فى الحقيقة قد خلق أشخاصها خلقا جديدا وأدار بينهم من الحوار الفلسفى مالم يكن يخطر لاحد منا على بال . وقد يكون من العسير أن تحقق الفلسفة التى أراد الكاتب أن ينتهى اليها ، ولكن هذا العسر نفسه مزية من مزايا الكاتب وفضيلة من فضائله . فهو ليس متعصبا ولا متأثراً بالهوى ؛ وهو لا يريد أن يفرض عليك رأيا بعينه أو مذهباً بعينه من مذاهب الفلسفة وانما يريد أن يثير فى نفسك التفكير فى طائفة من الآراء والمذاهب . وهو دقيق متواضع لايحب أن يعلن رأيه فى صراحة مخافة ان يتابعه ضعاف الناس فى غير بحث ولا تفكير . فهو يكتفى اذاً بان ينبهك الى طائفة من المسائل يحسن أن تفكر فيها وان تلتمس لها الحل لعلك تظفر به أو تنتهى اليه . ما الزمن ؟ ما البعث ؟

ما الصلة بين الانسان والزمن ؟ ما الصلة بين الحي والأحياء ؟ بأي الملكتين يستطيع الناس أن يحيوا وان ينتجوا في الحياة ؟ بهذه الملكة التي نسميها القلب والتي بها نحب ونبغض، أم بهذه الملكة التي يسميها العقل والتي بها نفكر ونحلل ونلائم بين الاشياء ؟

كل هذه المسائل خليقة أن تفكر فيها وان تقف عندها فتطيل الوقوف ؛ والكاتب يثيرها في نفسك ويصطنع لذلك فناً بديعاً نادرا فيه قوة مؤثرة وفيه رفق شديد . ليس هو معلما ولا أستاذاً ولكنه صديق يتحدث معك ويسايرك ويلفتك الى ماقد تمر به دون أن تقف عنده أوتنظر اليه . لا أعرف كاتبا عربياً كان حسن السيرة مع قرائه كالأستاذ توفيق الحكيم . فقد أكبرهم حقاو أرشدهم حقا . ونفعهم في غير ادلال ولاتيه ولا كبرياء .

والحب هذا الحب الذى أدخله الكاتب في هذه القصة في غير تكلف ولا عناء وفي غير مصادمة للشعور الديني ؛ والذى استطاع الكاتب أن يصوره صورتين قويتين تبلغ احداها من القوة حداً لانكاد نجده الا عند أشد الكتاب والشعراء الاوربيين عناية بالعشق وآماله ولذاته على اختلافها وتنوعها . وتبلغ احداها الأخرى بالحب قوة صوفية طاهرة بريئة من كل شائبة لانكاد نجدها الا عند كبار المتصوفة والقديسين

اعترف انى معجب ببراعة الكاتب في غير تحفظ والى غير حد . والحياة الواقعة التي يحياها هؤلاء الناس العاديون الذين لايتفكرون في أكثر من أعمالهم اليومية والذين لايذوقون الفلسفة ولايحسنون تصورها والحديث فيها كيف صورها الكاتب فأتقن تصويرها في شخص الملك ومن يحيط به من أهل القصر والمدينة . وهذا الايمان المختلط الذى يمتاز به قوم يصطنعون العلم ولكنهم في حقيقة الامر انصاف متعلمين ، فيهم سذاجة ولكنهم يريدون ان يكونوا فلاسفة . وفيهم غفلة ولكنهم يريدون أن يكونوا أذكياء . وفيهم حب للحياة وحرص عليها ولكنهم يريدون أن يتظاهروا وكأنهم يؤثرون الايمان على الحياة . ما أبرع الاستاذ توفيق الحكيم حين صوره في شخص المؤدب غالياس !

أظنك لاتريدنى على أن الخص لك القصة فهي مطبوعة تستطيع أن تقرأها بل يجب أن تقرأها فما ينبغي لمثقف في الادب العربي أن يجهل هذا الاثر الادبي البديع

ولكن وكم أنا آسف للكن هذه . وكم كنت أحب الا احتاج الى املائها . ولكن في القصة عيبان . أحدهما يسوؤني حقا ومهما ألم فيه الكاتب فلن أؤدى اليه حقه من اللوم ، وهو هذا الخطأ المنكر في اللغة . هذا الخطأ الذى لاينبغى أن يتورط فيه كاتب ما فضلا عن كاتب كالاستاذ توفيق الحكيم قد فتح في الادب العربي فتحا جديداً لاسبيل الى الشك فيه . أنا أكبر الاستاذ ؛ وأكبر قصته ؛ وأكبر (الرسالة) عن أن أقف عند هذه الاغلاط القبيحة التي يمس بعضها جوهر اللغة ويمس بعضها النحو والصرف ويمس بعضها الاسلوب وتركيب الجمل . ولا أتردد في أن أكون قاسيا عنيفا وفي أن أطلب الى الاستاذ في شدة أن يلغي طبعته هذه الجميلة وان يعيد طبع القصة مرة أخرى بعد أن يصلح مافيها من الاغلاط . وأنا سعيد بأن أتولى عنه هذا الاصلاح ان أراد . ولعل ماسيتكلفه من الطبعة الثانية خليق أن يعظه وأن يضطره الى أن يستوثق من صوابه اللغوى فيما يكتب قبل أن يذيعه بين الناس .

أما العيب الثاني فله خطره ولكنه على ذلك يسير لان القصة هي الاولى من نوعها كما يقولون . هذا العيب يتصل بالتمثيل نفسه فقد غلبت الفلسفة وغلب الشعر على الكاتب حتى نسى ان للنظارة حقوقا يجب أن تراعى فأطال في بعض المواضع ؛ وكان يجب أن يوجز . وفصل في بعض المواضع وكان يجب أن يجمل، وتعمق في بعض المواضع وكان يجب أن يكتفي بالاشارة . ولعله يوافقني على أن من الكثير على النظارة ان يستمعوا في الملعب لهذه القصة الجميلة حدا ؛ الطويلة جدا . التي تقصها برسكا على غالياس وهي تودعه وقد اعتزمت أن تموت في الكهف مع عشيقها القديس .

هذا العيب عظيم الخطر لانه يجعل القصة خليقة ان تقرأ لا ان تمثل . وأنا حريص اشد الحرص على أن تمثل هذه القصة ، وواثق كل الثقة بأن تمثيلها سيضع يد الاستاذ على مافيها من عيب فني وسيمكنه من اتقاء هذا العيب في قصصه الاخرى ومن اصلاحه في هذه القصة .

أما بعد فاني أرجو مخلصا ان تترجم قصة مدام خير الى اللغة العربية وان تترجم قصة الاستاذ توفيق الحكيم الى اللغة الفرنسية لتؤدى القصتان ماينبغي ان تؤدياه من تحقيق الصلة الصحيحة المنتجة بين الشرق والغرب .

طه حسين



في الأدب الايطالى الحديث

الرواية فى بونتاسياف !

للكاتب الايطالى لوسيو دامبرا

— تابع —

وفعلا، لم تمض ثمانية أيام حتى كانت الغرفة قد أعدت !

وهذا الحادث العظيم ، هذا الحادث الغريب، حادث اصرار « مارك سيرينى » على أن تمثل روايته الحديثة ولاول مرة ، فى قرية حقيرة لا يتجاوز عدد سكانها الخمسة آلاف نسمة ، هذا الحادث الذى لا يصدق ، أثارت الصحافة حوله ضجة كبرى ؛ اقتحمت حدود إيطاليا وأقلقت صحافة أوروبا بأسرها . ولقد كانت هذه القضية رنانة كسائر قضايا « مارك سيرينى » ورنانة أيضا ، كانت عودة رئيس الشركة الامريكية من « بونتاسياف » إلى « الستيديو » ، حيث كان المؤلف ، وسيجارته فى فمه ، ممدا على أريكة وثيرة : يفكر بسيدة النافذة الشهية ! ! !

— كل شىء الا هذا ! . . . لقد ذهبت اتعابنا أدراج الرياح : انى أعود من « بونتاسياف » اذ ليس فيها مسرح !!!

— ليس فيها مسرح ؟ هذا أمر عديم الاهمية : ان بناء مسرح لا يستغرق أكثر من شهر ، وهو الوقت اللازم للحفظ والمراجعات

— ماذا ؟ ؟ ؟ . . . بناء مسرح جديد ؟ . . . وفى ظرف شهر واحد ؟ ؟ ؟ لم يتحرك « سيرينى » . . . نظر إلى طاولة عليها رزنامة من المعدن اللماع . وقال :

— أجل ، فى شهر واحد ! . . . نحن الآن فى سبتمبر ؛ ولن يزال البرد شديداً حتى فى أكتوبر فى هذه البلاد ، . . . وبعد ، فان بناء مسرح خشبى يتسع لألفين شخص ، لا يمكن أن يستغرق أكثر من ثلاثة أسابيع

— وتزيينه ؟ . . . وتنميقه ؟ . . . فى ثلاثة أسابيع ؟ لن يكون هذا المسرح سوى براكة . . . .

هنا انتفض « سيرينى » وأجاب بلهجة قاسية :

لن يتسابق الناس لمشاهدة المسرح ، بل لمشاهدة روايتى ! ! !

— ٤ —

لنختصر : لم ينتجع وسيلة لحمله على تغيير رأيه ، ولو كان رئيس الشركة التى تعاقد معه إيطاليا . لترك الارباح التى قد تنجم عن هذا الاتفاق ، ولترك المؤلف يسدر فى عناده وجنونه. ولكنه كان امريكياً ، وللامريكيين عقل خاص ، وتفكير خاص يميزانهم عن غيرهم . ولم يمض شهر : حتى كان كل شىء قد تم : حفظت الرواية وروجعت واقيم المسرح فى بقعة جميلة . أما ماجرى فى « بونتاسياف » فى ذلك الوقت : فأمر لا يستطاع تصويره او وصفه ، ولا شك أن بينكم اناساً وجدوا فيها ، فى ذلك الحين ، وهؤلاء وحدهم يستطيعون أن يذكروا كيف احتلت الغرف المعدة للايجار احتلالا لا يفرق عن الاحتلال العسكرى بشىء ، وكيف ان الجموع الغفيرة تسابقت الى فلورانسا وانى « اريزو » لتبحث لها عن مبيت : وكيف انها عادت الى « بونتاسياف لتحضر تمثيل الرواية . وتعود بعد منتصف الليل الى إحدى المدينتين المذكورتين ..ولاشك انهم يذكرون ايضا انه كان بين المتفرجين اناس تقاطروا من اقصى البلاد . بينهم كثير من النقاد المسرحيين ؛ ورؤساء شركات التمثيل . الاجنبية . . . . وقد كان بينهم صحفيون اضطروا خدمة للفن ان يبيتوا ليلة كاملة فى القطار ، وان يضيعوا يوما كاملا فى ساحة « بونتاسياف » وان يمضوا الليلة ثانية متعبة ، فى دائرة البرق ، حيث ظن عامل التلغراف المسكين ، ان الساعة اقتربت ، وان القيامة قامت ! ! !

وليست هذه بالمعركة الاولى التي استبسل فيها « مارك سيريني » بطبعه الهادىء الرزين . ولكنها كانت أشد المعارك كلها وأحماها وطيساً ، لأن تلك الرغبة الشاذة ، التي شاءت أن تضطر محبي الفن للمجيء الى (بونتاسياف) تركت أسوأ الاثر في النفوس ، حتى أن القادمين كانوا على أتم استعداد لأن يثأروا لانفسهم !

وهكذا فانه قبل أن يرفع الستار بساعتين ، أسرع أصدقاء (سيريني) اليه ، وأخبروه أن الجو مكهرب ، وأن عواصف السخط والغضب لن تلبث أن تصدم الرواية صدمة عنيفة ، ربما كانت لا نقوى على احتمالها ، ولكن المؤلف أجابهم بلهجة حازمة :

— إذا كانت لديهم سهام فليسددوها !!! . . واذا كان لديهم قنابل فليقذفوها !!! . . أما أنا ففي غنى عن آرائهم : لا يهمني هذا المساء ، غير رأى شخص واحد !

— امرأة ؟

— طبعاً !!!.. ومن تريدون أن يكون اذن ؟.. وزير ؟ ؟

ولم يزد على ذلك كلمة لأنه كان يحرص كل الحرص على أن يخلص بسره لنفسه . . . أما الناس فقد ذهبوا في الظن كل مذهب . .

— ٥ —

ومع ذلك ، ورغم هذا الحرص فانه لم يضن على به . . من عادة (سيريني) أن يتخلف عن حضور رواياته ، عند تمثيلها لأول مرة ، ومن عادته أيضاً أن يدور حول المسرح كما تدور الفراشة حول الضوء ، حتى اذا أخذ اللهيب بأحد أجنحتها لجأت الى الهرب فاذا نسيت اللهيب وأثره في جسمها . عادت تحوم حول الضوء وحول الخطر ، و (سيريني) يحاول أن يتظاهر بالهدوء . وأن يتحدث عن أشياء لامساس لها بالرواية حتى اذا أصابها الاخفاق . فقد رزانته وشرع يصب جام غضبه طيلة الليلة بكاملها على تلك الجموع المأفونة التي لا تقدر الفن . ولا تفهمه ، ولا تستحق أن تفهمه ، ورماها بأقبح الوصمات وأشنعها

أخذنا نتنزه سوية ، ذلك المساء في أزقة القرية التي استحالت في ساعة من الزمن الى ميدان تتزاحم فيه السيارات ، ويتكدس بعضها فوق البعض الآخر . . وكان الشاعر يبتسم ، ويطلعني بهدوء على الاسباب التي حدت به لأن يثير عليه سخط تلك الجموع الغفيرة ، وكان يقول لي وهو يضغط على يدي :

— أفهمت ؟ . . أفهمت ؟ . . اني اذا كنت امرت الا تمثل روايتي لأول مرة الا في « بونتاسياف » فلأني اريد أن أستثير اعجابها !! . . تلك هي الغاية الوحيدة التي أرغب في ادراكها من غرامي الغريب !

— آه ! . . . لو انك رأيتها في ذلك اليوم ، لصهرك حبها رغم ماأنت عليه من « برود » ، وبعد ، فأنا لست أعتقد ان بين الذكور . رجالا ينطبق عليهم هذا الوصف ، وإنما هم جميعاً في نظري ، براكين هادئة . تثيرها مشاهدة امرأة ، وتجعلها أشد هياجاً ، من البراكين الدائمة الاستعار ! آه . . لورأيتها وهي تطل من فتحة النافذة ! . . . ها . . . . ها هي . . . . نافذتها !

كانت نافذتها مغلقة ، وهي ذات درفات خضر ، وواجهة وردية . . . كانت محكمة الغلق : لايتسرب من خصاصها أقل بصيص نور ، فسر « مارك » لذلك : وقال بلهجة المنتصر :

— لم يبق أحد في داره ! . . . لقد ذهبت « المدينة » بأسرها لمشاهدة روايتي ! . . . وهي ، هي . . . هي في هذه الساعة ، هناك ، مأخوذة بجمال روايتي وقوتها ، تكتسحها موجة الاعجاب التي أردت ان أتغلب عليها بها . . . . اني اقدم لها فخراً لايعدله في العالم فخر . . . اقدم لها عيداً ، بل مهرجاناً لايحلم به احد ! . . . أي سحر ؟ . . . واي عيون ؟؟؟ آه ! . . . اني لا أتمنى الا أن تدلني الحب هذه الريفية الحسناء ، أنا الشاعر المتعب . . أنا الشاعر الفتان ، الذي تضايقه النساء ، وتطارده . . تلك النساء اللواتي تجملهن المساحيق ، وتزينهن « الكريمات » المختلفة . . . تلك النساء الكئيبات ، اللواتي يلبسن جوارب بمائتين فرنك فقط . . . تلك النساء الفارغات القلوب ، كبطونهن التي لايملأنها خشية السمنة !!!

ان سيدة النافذة ، على نقيض هذا كله : هي بسيطة رشيقة حقيقية الجمال ، لها نفس ، ولها قلب ، ولها مواهب ، ولها نباهة ولقد قرأت في عينيها ذلك الاعجاب اللامتناهي الذي تخصني به وتسبغه علي !

وأنا موقن ان هذه الحسناء قرأت رواياتي كلها ، وانها اصبحت تعرفها ولكن معرفتها بها لايجوز ان تقارن بمعرفة صديقاتي المعجبات — باركهن الله — بما وضعت من روايات ..

تلك الصديقات اللواتى يتسارعن لمشاهدة رواياتى عندما تعرض للتمثيل لأول مرة ، وكأنهن يتسابقن « ليجبرن خاطرى » . . حتى إذا بدأ التمثيل اخذن فى الثرثرة والمغازلة مع عشاقهن فى زوايا المقصورات : انهن لايتقاطرن على المسرح من اجلى ، أو من اجل رواياتى . . كلا ! . . بل ليعرضن على الانظار اثوابهن الحديثة !.

وألقى نظرة اخيرة على درفات النافذة ، ثم اخذ يتجه نحو المسرح ، كما يتجه الفراش نحو الضوء .

— انى احبها . . احبها حتى البلاده ! . . ولاجلها وضعت هذه الرواية ، وقد وضعتها بعاطفة لم اشعر بمثلها من قبل ! . . اقسم لك على ذلك ! . . . تصور . . . تصور انك ذات مساء ، تبصر بين الحضور المرأة الوحيدة التى تحبك وتعجب بك اعجابا لايحد بحدود ، ولا يقاس بمقياس ، تصور ذلك ، وقل ، ألا تدير « السانفونى » التاسعة ادارة لاتحسن مثلها فى كل وقت ؟ ألا تخرج منها مالم يحلم « بتهوفن » نفسه ان يخرجه منها ؟ ؟ اذن . . انا اليوم احارب هذه الجماهير كلها . من اجلها هى . إنا احارب باسمها وبجمالها !

ان رواياتى انما هى معارك ، وحروب ، وسباقات ، إذن فهى لاتبعث على التثاؤب والملل ، وإذن فهى لاتدع المتفرجين هادئين ساكنين ، بل تحرك ما فى نفوسهم من عواطف وميول وتحملهم على التفكير

ماذا ؟ . انتصار ؟ . لم نكد ندرك المسرح ، حتى هرع الينا بعض الاصدقاء .

— انتهى الفصل الثانى منذ قليل : نجاح لامثيل له ! . . انتصار لايعدله انتصار ! . . ولكن اى جمهور فى بدء التمثيل ؟ جمهور عبوس حذر ، الا انه لم يلبث ان خفف من حدته بالرغم منه حتى اذا كان التمثيل ، لم يتمالك أيديه عن التصفيق وألسنته عن الهتاف : وهكذا ، لم ينته الفصل الاول حتى ثارت عواصف التقدير ، وانفجرت قنابل الاعجاب . أما الفصل الثانى ، فهو الذى أتم الانتصار وجعل الستار ينزل بين رعود من التصفيق الحاد المتواصل ، والهتاف العالى القاصف ! ! ! . . .وقد اضطرت الممثلة « تيريز اندريانى » ا كثر من عشر مرات متوالية ان تعود الى المسرح . لتحية الجماهير المعجبة . .

لها بقية — حاب ايزاك شموش